ثلج تحت الشمس

ثلج تحت الشمس

تأليف: أميرة علام
مراجعة لغوية: سمية عبد المنعم
تصميم الغلاف: محمود عبد الناصر
الإخراج الفني: سالم عبدالمعز سواح
الطبعة: الأولى
رقم الإيداع: 2023/10113
رقم الإيداع الدولي: 978-977-86683-4-6

محفوظة جميع الحقوق

ثلج تحت الشمس

رواية

أميرة علام

4 يونيو

الحياة مغرية رغم كل ما فيها من حزن وكدر، والعالم يموج بالجمال رغم سوء طباع البشر. ربما لا يدرك اليائسون ذلك إلا وهم على حافة الموت، تلك معضلة الإنسان الأزلية، لا يدرك قيمة الأشياء إلا بعد ضياعها، وكأن قيمة الشيء معلقة بغيابه؛ لذا عندما يأتي لأحدهم إنذار بالموت، فقط يبدأ يرى قيمة الحياة وروعتها.

تمامًا كما حدث مع "هاشم"، كان رجلًا وحيدًا في نهاية عقده السابع يواجه وحده خريف العمر، وينتظر لحظة سقوطه في مهب الريح، انتظارًا كئيبًا مملًا كانتظار المواطنين في صفوف المصالح الحكومية، دائمًا ما يتخيل أنه في طابور طويل منتظرًا ختم وفاته.

أجبرته الوحدة على أن يقضي وقته في مشاهدة الأفلام، فقد كان متابعًا جيدًا لكل جديد والذهاب إلى السينما متعته الخاصة، اتخذ الأفلام عزاءً له عن حياة الوحدة، واختار أن يعيش مع الأبطال حكاياتهم، يشعر بمسراتهم وأتراحهم، وبذلك لم يكن يشعر أنه وحيد تمامًا.

فقط أكثر ما كان يزعجه في وحدته هو أن يموت وحيدًا، يقول "الأسوأ من أن يعيش الإنسان وحيدًا هو أن يموت وحيدًا".

لم تشغله كثيرًا وحدته بقدر ما كان يشغله يوم وفاته وهو وحده، هذا أكثر شيء استحوذ على تفكيره في سنواته الأخيرة.

إذ كان دائمًا ما يتذكر حادثة الخالة صفية التي شهدها وهو صغير.

كانت صفية تعيش مع عواطف أختها العمياء، لم يكن لهما سوى بعضهما، كانت علاقتهما مثالًا رائعًا في الأخوة والوفاء، رفضت صفية الزواج كي لا تترك عواطف، وعاشت لها لترعاها فاقترن اسماهما ببعضهما البعض. كانت لا تُذكر إحداهما إلا وذكرت الأخرى، لا يقال صفية فقط أو عواطف فقط، إنما يقال في جملة واحدة صفية وعواطف؛ لأنهما لم تكونا تفترقان أبدًا، فلم تريا إلا معًا، حتى عندما كبرت سنهما ظلتا محتفظتين باسميهما دون ألقاب، ولأن الحياة متقلبة ولا تسير على وتيرة واحدة أخذ الموت عواطف وبقيت صفية وحيدة، أصبحت فجأة تُنادى بالخالة صفية، لم تكن تعرف أنها كبرت بالعمر إلا حينما نوديت من أطفال وشباب القرية بهذا اللقب، شعرت أنها شاخت فجأة وضاق الكون عليها رغم رحابته إثر فقدان عواطف وأدركت كم هي وحيدة، ظلت تقارع الحزن وتقاومه، تارة تغلبه وتارة يغلبها.

ولكنها لم تصمد كثيرًا، إذ لم يمر عامان وبلّغت رائحة جثتها عنها الجيران الذين اقتحموا دارها ووجدوها ميتة وتنهشها القطط، كان من بينهم "هاشم" ابن العاشرة من العمر.

لم يستطع "هاشم" أن يمحو هذه الحادثة من ذاكرته، وهيمنت عليه عندما أطبقت عليه الوحدة في عقده الأخير.

كان ينظر لانعكاسه في المرآة كل يوم وهو لا يدري هل هو هذا الإنسان! هل هذا ما يراه الناس؟ تغيرت ملامحه كثيرًا، عصف به الدهر.. كل شقائه ظهر على ملامحه.

منذ سنوات وهو لم يتعرف على نفسه، دائمًا ما يشعر أنه تائه حتى داخل جسده، وتلك أشد أنواع الغربة.

كان ينظر في المرآة كأنه ينظر لإنسان آخر، ويستطيع أن يصفه بأنه إنسان متوسط الطول والقامة، به صلعة من الأمام تركت الشمس أثرها في وجهه القمحي الذي احتلته خطوط التجاعيد.

عاش "هاشم" ما يكفي لفهم الحياة، وآخر ما توصل له أن الحياة ورطة يُقحم فيها من يولد.

فقد كان غارقًا في بؤسه ووحدته حتى عنقه كما يليق بعجوزٍ وحيد.

عمل في السابق موظفًا، ولكنه لم يكن يعتمد على راتب معاشه، بل إيجار أراضيه في قنا، الذي يصله كل شهر عن طريق البريد إلى المنيل في القاهرة.

أرعبته فكرة الموت عندما أصبح على مقربة منه بعدما علم بدنو أجله.

منذ شهر شعر أن هناك علة في بطنه تحول بينه وبين الراحة، وكان يأتيه ألم مبرح من حين لآخر، تردد كثيرًا قبل أن يأخذ قرار الذهاب للطبيب، حتى استيقظ ذات يوم بألم لا يحتمل، فذهب لمستشفى المبرة التي لم تبعد كثيرًا عنه، كان في موقع محاط بالمستشفيات.

ذهب إلى الطبيب الذي بدوره أمره ببعض الفحوصات لشكه في وجود ورم، لم يخبره الطبيب بذلك، ولكن حاسته التشاؤمية نبأته بعد كثرة الفحوصات، تمنى حينها أن يكون محض شك لا أكثر، فهو لم يحتمل الحياة وهو في كامل صحته فكيف إذا فقدها، وصار لا يقدر على خدمة نفسه؟!

حينها سوف تصبح لا تطاق.

صار حتى ظهور نتيجة الفحوصات يرسم أسوأ السيناريوهات التي سوف تحدث لنفسه، وبما أنه متابع جيد للأفلام فكان خياله واسعًا، تارة يتخيل أنه يريد الدخول للحمام ولم يستطع، وتارة يتخيل أنه ملقى على سرير بالٍ في مستشفى عام وهو مجهول الهوية حتى تعثر عليه ابنته.

بعد يومين ظهرت نتيجة التحاليل والأشعة، ذهب إلى المستشفى ليعرضها على الطبيب، ولكنه لم يرد سماع الخبر منه، اجتاحته هذه الرغبة، فالأطباء عادة يقولون الأخبار السيئة بآلية تخلو من التعاطف، هذا الجمود في العواطف يربكه ويذكره بابنه، وكان في هذا الوقت بالذات يريد أن يشعر بالتعاطف معه ليحس بآدميته التي نسيها، لم يراوده أمل في نجاته؛ لذا اعتبر أن مسألة عرض الأشعة على الطبيب ما هي إلا تحصيل حاصل. فقد كان متشائمًا على الدوام.

أمام حجرة الكشف وجد فتاة تسير، نادى عليها، توقفت تنظر له.. أعطاها التحاليل والأشعة قائلاً:

- أيمكنك أن تعرضي تلك الفحوصات على الطبيب بدلاً مني؟ أشعر أنها تُنبئ عن ورم خبيث وهذا ما أخشى سماعه.

شعرت الفتاة بالشفقة نحوه، لاحظ هذا عندما قطبت جبينها، فسرّه ذلك، أن يشعر أحد به، أخذتها قائلة:

- لا تقلق، لن يكون فيها ما يخيفك إن شاء الله.. انتظرني.

دخلت للطبيب وظل مكانه ينتظرها، فضوله لم يكن ليجعله يستريح على أحد المقاعد حتى تخرج له، لم تغلق الباب خلفها، فجاءه صوت الطبيب واضحًا جليًا وهو يقول:

- انتظري..

صمت قليلا وأكمل:

- آسف أن أضطر أخبرك بهذا، ولكن الحالة متأخرة جدًّا، لقد انتشر الورم في الأمعاء كلها، ولن تُجدي معها الجراحة نفعًا ولا العلاج، أي تدخل سيعجل بوفاته لأن كل وظائفه الحيوية ضعيفة جدًا.. أُفضِل أن يموت في هدوء، ذلك خير له من العذاب.. يجب عليكِ أن تتماسكي، لا تخبريه شيئًا من هذا، قولي له كل شيء على ما يرام، دعيه يموت في هدوء.. فأمامه أشهر قليلة أو أيام قد لا تتعدى شهرًا.

صمت قليلًا وواصل:

- تلك هي مرحلة العلاج التلطيفي.

لم يكن يريد أن يسمعه، كان فقط منتظرًا خروج الفتاة لا أكثر، المعرفة هلاك خاصة عندما يكون معرفة أمر كهذا.

تجهم وشُلت دماغه عن التفكير، لم تحمله قدماه، اتجه إلى أقرب مقعد، لا لينتظر الفتاة، ولكن ليفكر، شعر بالخوف الشديد وتزاحمت أفكار كثيرة في رأسه، مر شريط حياته سريعًا أمام عينيه، تذكر لحظات فارقة سعيدة وكئيبة، تذكر وجه زوجته ووجه صديقه، وابنته وأولادها، لم يكن يدري ماذا يفعل، شعر أنه لا يريد أن يموت، أمامه شهر كما قال الطبيب، ماذا يفعل في هذا الوقت القليل قبل أن يغادر الحياة التي أحبها فجأة؟!

حار في أمره؛ أيخبر ابنه المهاجر؟ علّه يأتي يؤنسه في أيامه الأخيرة حتى لا يموت وحيدًا.

تذكر أنه آخر مرة رآه فيها كان منذ وفاة أمه، جاء يحضر العزاء ويغادر كأنه غريب، وهذا ما يمليه عليه الواجب ليس إلا، منذ هاجر إلى كندا أصبحت حياته عملية لا مجال للعواطف فيها.

أم يخبر "وردة" ابنته التي أخذها الزواج منه، بعد وفاة أمها قبل ستة أعوام ألحت عليه كثيرًا ليتزوج دون أن تيأس، حتى لا يكون وحيدًا، فهي تعيش بعيدًا عن القاهرة بمئات الكيلوات في محافظة "قنا" موطنهم الأصلي، كانت تقول له "تزوج يا أبي" يجاريها "من ستتزوج رجلًا أصلع قارب على السبعين؟" تجيبه "أنت قمر" يتكرر ذلك الحوار كلما زارها في بيتها أو زارته هي في بيته، تندر الزيارات بينهما نظرًا لبعد المسافة، المسافات لعينة، إنها تهدم بيوتًا من الود، ولكن حتى المكالمات الهاتفية بينهما قليلة.. إنها الحياة.

"وردة" كما يقول أبوها معها (أورطة عيال) كلما أنجبت يقول لها "العيال سيهدون حيلك"، تجيبه

"بكر يحب العيال". لم يكن يحب بكرًا زوجها، كان على خلاف دائم معه، فنشأت بينهما علاقة متوترة لا تظهر لأحد غيرهما؛ لذا عندما ماتت زوجته لم يرد أن يعود لقنا؛ لئلا يفسد حياة ابنته.

في آخر مكالمة قبل أكثر من أسبوعين سألته "متى تتزوج يا أبي؟"، أجابها "بنيتي أنا بضاعة كاسدة، بقايا إنسان لا يصلح لشيء"، ردت "يكفي أنك طيب".

لم يرُق له أن يخبرها، ولكنه لا يريد أن يموت وحيدًا، ولا يعرف الجيران ذلك إلا من رائحة جثته المتعفنة كالخالة صفية، في تلك اللحظة خرجت الفتاة بوجه مبتهج تعطيه الفحوصات، كان قد

نسي أمرها فقد غرق في بحر من الأفكار، ولكنها أعادته على شاطئ الواقع قائلة:

- اطمئن، كل شيء على ما يرام.. فقط التهاب في المرارة.

ابتسم ساخرًا، أعطته مع الفحوصات روشتة، دوّن الطبيب بها بعض الأدوية لعلاجه، قالت وما زالت متهللة الوجه:

- عليك أن تجلب هذا الدواء، وأهم شيء هذا المضاد الحيوي وتستعمله صباحًا ومساء حتى يزول الالتهاب.

ضحك نصف ضحكة؛ لقد أجادت الدور حقًا، أراد أن ينبهها أنها موهوبة في التمثيل وعليها أن تأخذ تلك الموهبة على محمل الجدية، ولكنه أخذ الفحوصات من يدها وهو يشكرها، وترك روشتة العلاج تقع على الأرض بإهمال مقصود.. كان يقول في نفسه "أي مضاد أجلبه وأنا سأموت أيتها الخرقاء، ما نفع (النفخ في القربة المخرومة)؟"

انحنت الفتاة لتجلبها له فلم ينتظر وتركها وغادر، تعجبت، ولكنه لم يعبأ، سار على غير هدى لم يعرف إلى أين يذهب، فلم يكن له أحد يذهب إليه.

*****

ما جعل "هاشم" يفيض بالوحدة أنه كان وحيد أبويه اللذين ماتا منذ أمد بعيد، فقد أنجباه بعد 19 عامًا من الزواج، لم يكن أبوه عبد الحي ينجب ورضيت أمه بنصيبها رغم رغبتها الشديدة في الأمومة وحمل قطعة منها على يديها، لم تكن راضية تمامًا فقد كانت تتذمر أحيانًا وتفرغ حزنها في تشاكلها مع زوجها عبد الحي، ولكن إرادة الله تدخلت بعد تلك الأعوام من الزواج وأعطتهما "هاشم"..

أما صديقه الوحيد فقد مات أيضًا منذ عامين، كانت فاجعة بالنسبة له، ولكن بعد وفاة زوجته صار يتقبل الآلام بصدرٍ رحبٍ، موتها عوّده على الفراق، لم يكن بينهما حب عظيم ولكنها منحته كل شيء يمكن أن يحتاجه رجل، ما كان بينهما هو مودة ورحمة واحترام متبادل بحكم العشرة، لم يكن يعرف هل يحبها أم لا عندما يسأل نفسه هذا السؤال، ولكنه كان يعود في المساء يحمل تعب اليوم كله فتبدده بحنانها الجارف، كانت تخلصه من إحباطه من الحياة وملاذه الآمن من صخب العالم، أما الآن أصبح يعود في المساء يحمل تعب العمر كله وحيدًا وخاويًا من كل شيء، وفي الصباح يعاود هروبه.

بعد موتها تبقى له صديقه "صلاح"، ولكنه ذهب أيضًا ولم يتبق له سوى الوحدة وأطلال من الذكريات.

*****

صعد السلم الذي يعلو المترو في محطة الملك الصالح وعبر الطريق وهو مشوش التفكير وقليل الحيلة.

أثناء سيره وهو منهمك في التفكير جلس في الطريق، هوى على الرصيف، فتح أول زر في قميصه ليتنفس بسهولة أكبر ويجفف عرقه ويلتقط أنفاسه المتلاحقة لتهدأ ضربات قلبه، لم يبذل مجهودًا يستحق كل ذلك، ولكنها كانت نوبة هلع، سند جبهته على كفه، وهو في هذا الوضع ممتلئًا بالرعب ويشعر أنه يحتضر جاءه صبي لاحظ سقوطه، كان في الخامسة عشرة من عمره، ملابسه رثة، يقول بتهتهة وحروف ممطوطة:

- أبك.. شيء؟ أنت بخير!

أول ما رآه "هاشم" منه كان قدميه المتسختين، وأصابعه التي تظهر من نعله البالي، كان في القدمين إصبع مقطوع، رفع رأسه للأعلى ليراه، كان في يده كيس مناديل، فقال:

- يبدو أنني سأموت.

شعر الفتى بالذهول، لم يعرف ماذا يقول، صمت قليلا وقال بلسانه الثقيل:

- بماذا... تشعر؟

لم يرد "هاشم"، كان الفتى يريد أن يقترح عليه أن يتصل له بأحد من أقاربه، ولكنه لم يفصح عن هذا الاقتراح لأنه يخشى مواجهة الناس ولا يستطيع التحدث بشكل جيد، فقال:

- آخذك.. للمصحة!

- لا تتعب نفسك يا بني.. علتي ليس لها دواء، حتى إن كان لها فقد وصلت متأخرًا.

- كيف؟

- لقد سمعت الطبيب يقول إن أمامي أيامًا قد لا تتعدى شهرًا.

كان الفتى ما زال ذاهلا، فقال بطريقة نطقه المتلعثمة:

- لن.. تموت، لا تخف.

وضع هاشم يده على صدره ونظّم أنفاسه حتى هدأ، فقال الفتى:

- أجلب.. لك ماء؟

- لا داعي.. لقد تحسنت.

همَّ "هاشم" بالوقوف فأخذ الفتى بيده وأخذ منه الفحوصات يحملها عنه رغم أنها لا تتعدى الجرامات، وسار معه يوصّله إلى المكان الذي يلوي، كانت هناك عرجة خفيفة تظهر في مشيته، عندما وصلا صعد معه إلى شقته في الطابق الثاني في عقار بشارع لبيب البتانوني دخل معه حتى أجلسه على الأريكة ووضع الفحوصات على الطاولة المجاورة، وهمّ بالمغادرة وهو يقول:

- تريد.. شيئًا؟

- أريد أن أشكرك كثيرًا.

لم يجبه، تلفت حوله وهو يقول:

- ألا.. يعيش.. أحد معك؟

تعثر صوت "هاشم" وهو يجيبه:

- أنا وحيد تمامًا.

- لا تحزن.. أنا وحيد مثلك.

- أين تبيت؟

- الشارع.

- هربت من بيت أهلك؟

هز كتفيه بلا مبالاة وهو يتبع أحرفًا ممطوطة:

- لم أعرف لي أهلًا.

أومأ "هاشم" صامتًا، لم يعرف ماذا يقول، فقال الفتى وهو يهم بالمغادرة مرة أخرى:

- تريد.. شيئًا؟

صمت "هاشم" قليلًا يبحث عن كلمات فلم يجد، فقال:

- أريد ألا أموت وحيدًا.

صمت الاثنان، طال الصمت بينها، فقال "هاشم" بعد تردد:

- طالما أنك تعيش وحيدًا لما لا تعيش معي؟ وإذا ما مت تخبر ابنتي.

صمت الفتى، فأكمل "هاشم":

- أعرف أن الأمر ليس بهذه السهولة، ولكن أشعر أن القدر من أوقعنا في طريق واحد لنلتقي.

صمت الفتى يفكر، كلامه معقول، هما الاثنان وحيدان، فلما لا يكونان عونًا لبعضهما، ولكن تجاربه الماضية كانت تخبره ألا يوافق على أمرٍ كهذا.. إنه يخشى الناس كثيرًا ولا يستطيع التعامل معهم، ولكنه لسبب ما لم يخش "هاشم".

ظل "هاشم" يفكر هو الآخر ماذا فعل وما تلك الفكرة وليدة اللحظة التي عرضها على الولد، بالتأكيد لن يوافق، ربما يظنه زعيم عصابة، أو سارق أعضاء..

حتى هو نفسه كيف يأمن على نفسه مع غريب قد عرفه للتو في البيت، الحياة ليست بتلك البساطة والأمان للناس يحتاج شهورًا في هذا العصر المملوء بسوء التفاهم.

بعد طول صمت قال الفتى:

- أنا..

لم يجد شيئًا يقوله، هربت كل الكلمات من فمه.

صمت قليلا وأكمل:

- وأنا.. وحيد لا أخاف.

أومأ له صامتًا.. كان يتوقع ذلك، استكمل الفتى وهو يقول بمسافة بين الكلمة والأخرى:

- أنا اعتدت على الشارع.

قال "هاشم" يائسًا:

- الإنسان يعتاد على كل شيء.. ومع ذلك كما تريد.

نهض الفتى ليغادر بينما هاشم يتبعه بعينه، كان يسير ببطء المترددين، بعد عدة خطوات التفت له قائلاً بحروفه الممطوطة المتلعثمة:

- موافق.. ولكن ربما أغير رأيي في أي وقت.

كان رد "هاشم" ابتسامة واسعة..

*****

دخل مرة أخرى، فأغلق "هاشم" الباب كالمعتاد؛ فارتاب الفتى والتوتر غزا ملامحه، لاحظ "هاشم" ذلك فقال يطمئنه:

- لا تخف.. كل شيء هنا سيسير كما تريد، وإذا تراجعت في أي وقت فقط أخبرني.

أومأ له صامتًا، فأشار "هاشم" على إحدى الغرف وقال:

- هذه غرفتك.. إذا أردت أن تجلس فيها بمفردك أو أردت النزول للشارع وتعود وقت النوم، فلك ذلك.. وإذا أردت الجلوس معي فأنا هنا.

كانت الشقة واسعة وأثاثها راقيًا.

أومأ صامتًا مرة أخرى، أشار "هاشم" إلى الطرقة المؤدية للحمام والمطبخ وأكمل:

- هنا الحمام والمطبخ.. إذا شعرت بالجوع كُل ما تريد ولا تخجل.

نطق أخيرًا وقال وهو يتلفت حوله:

- حسنًا.

- حتى الآن لم أعرف اسمك.

- اسمي "علي".

- حسنا يا "علي" سوف أحضر العشاء.

ببطء قال: لست جائعًا.

- كما تريد.

- أريد.. أن آأخذ.. حمامًا.

- سوف أبحث في ملابس ابني عن شيء يناسبك.

بعد قليل جلب له "هاشم" بعض الملابس التي تناسبه، أخذها "علي" ودخل أخذ حمامًا، كان الحمام به حوض للاستحمام "بانيو"، نام به وانصب الماء البارد على جسده وهو يفرك شعره الكثيف، أخذ الصابونة غسل بها جسده وشعره ونام في المياه قرابة نصف الساعة دون أن يفعل شيئًا، فقط يفكر، لم يشعر بهذه الراحة والاستجمام من قبل، ظل يقارن هذه الدقائق المعدودة بحياته السابقة وجد أن تلك الدقائق تربح، لم يكن في حياته السابقة شيء يسر، كل ما بها كان أسى ومعاناة، بصعوبة استطاع أن يترك الحوض،

كان يريد لو بات فيه حتى طلوع النهار، ارتدى الملابس النظيفة وخرج من الحمام، وجد "هاشم" جالسًا فقال يستأذنه:

- سوف أنام.

أومأ "هاشم" له صامتًا، ودخل "علي" غرفته لينام أو ربما ليتظاهر بالنوم.. ما زال خائفًا يترقب.

رغم أنه كان ينام في الشوارع ويلتحف أسقف الجسور والمباني، وتزعجه أصوات الحشرات وأبواق السيارات إلا أنه كان ينام ملء جفنيه، والآن وهو في مأمنٍ وهدوء لم يستطع النوم، الإنسان أسير ما يألف حتى إن كان ما يألفه شديد الغرابة، ولكنه كما قال "هاشم" يعتاد كل شيء.. سوف يعتاد "علي" تلك الحياة الجديدة ويألفها كما أَلِف غيرها.

*****

"اليوم الأول"

خرج "علي" صباحًا من الغرفة يعبث بعينيه، وجد "هاشم" موضعه في الصالة فوقف لا يدري ماذا يقول، فقال "هاشم":

- صباح الخير.. نمت جيدًا؟

أومأ "علي" دون رد، فواصل "هاشم":

- جلست أنتظرك لنتناول الفطور سويًا.

ابتسم "علي"، لم يشعر بهذا الدفء من قبل، أن ينتظره أحد فقط ليأكل معه، فقال:

- سوف.. أذهب لأجلبه.

أخذ "هاشم" المال من جيبه مبتسمًا وأعطاه له وهو يقول له ما سوف يجلبه.

ذهب "علي" وقد لاحت له فكرة شيطانية وهو ينظر للمال ويتذكر "هاشم" وهو يعطيه له من

بين نقود كثيرة، فكر أن ينتظره عندما ينام ويسرق كل أمواله ويذهب، ولكن ماذا لو رآه وقاومه؟ كانت الأفكار تسوق بعضها، سوف يستعين بعصا وإذا رآه يضربه على رأسه ويفر بالمال.

أما "هاشم" انتظره سعيدًا بوجود أنيس معه يشاركه الحياة، فالوحدة مقيتة ومهينة لفطرة الإنسان.. كان بحاجة لآخر لكي يشعر بآدميته.

هيّأ "هاشم" نفسه للموت بالاستسلام دون أن يضع خطة لأيامه الأخيرة، ولكنه عزم على التقرب إلى الله أكثر، كتصرف طبيعي لشخص مقبل على الموت، لم يكن يدري ما عليه فعله، فلا شيء يربطه بهذا العالم ليأسف على فواته، يرى دائما أن الموت راحته الأبدية، ولكنه كان خائفًا من المصير المجهول، وزاد خوفه أضعافًا كثيرة بعدما علم بقرب موته، حتى الآن مر يوم واحد منذ سمع الطبيب، أصبح الوقت له قيمة ومعنى، قال في نفسه "ليتني ما سمعت، مواجهة الموت دون علم راحة".

جاء "علي" بالفطور لينتشله من أفكاره، تناولاه ودار بينهما أول حوار حقيقي، قال "هاشم" بلا مقدمات:

- كلنا نحب الحياة ونزعم أننا نكرهها.

بعد طول صمت قال "علي":

- خائفٌ من الموت؟

- من لا يخاف منه!

- أنا.

- إذا جاءك حقًا فسوف تخاف.. كنت مثلك، ولكني الآن أريد أن أعيش أبد الدهر لو استطعت.

- لا.. أظن أنني.. أحب الحياة.. قبل عام سعيت لقتل نفسي، ولكن أحدهم أنقذني.

بذهولٍ قال "هاشم":

- لِمَ؟

- أشياء كثيرة.

- بالتأكيد الحياة عند الله أفضل، ولكن نحن لا نعرف شكل الحياة هناك.. تلك الحياة هي كل ما نعرف.

سأله:

- أنت مؤمن بالله؟

- بالتأكيد!

- إذن.. كيف لا.. تعرف شكل الحياة.. هناك؟ لقد أخبرنا.. الرسول عن.. الجنة.

فقال هاشم يراوغه:

- ولكن نحن لا نعرف مصيرنا.. الجنة أم النار!

- بالتأكيد الجنة.. نحن مؤمنون.

ابتسم "هاشم"، لقد بث به الطمأنينة، وتعجب كيف لطفل في ظروفه تلك التي تبعث على الشك في وجود الله أن يكون بهذا القدر من الإيمان.. فقال:

- أنت طيب الأصل يا "علي".. أريدك بعد أن أموت أن تقرأ لي كل يوم ولو سورة صغيرة من القرآن وتدعو لي أن أدخل الجنة.

- لا.. أعرف القراءة والكتابة.. لم أدخل مدارس.

- إذن تلك أول مهمة قررت خوضها قبل الموت.. سوف أعلمك القراءة والكتابة.

بعد هذا الحوار القصير تراجع علي عن كل الأفكار التي تشبه قانون الغاب، رغم أنه طيّب الأصل كما قال "هاشم" ولكن علمه

الشارع أن لا شيء فوق نفسه، فنفض تلك الوسوسة بعدما شعر بالعار من نفسه.

*****

في مساء اليوم نزل الاثنان سويًا لجلب ما سوف يحتاجانه لتلك المهمة، اشترى له "هاشم" دفترًا وقلمين؛ جاف ورصاص، وممحاة، بدا أن "علي" أحب الفكرة إذ كان مبتسمًا على غير عادته، كان من الممكن أن يتركه هاشم ينزل يبتاع تلك الأشياء وحده، ولكنه كان هدفه من النزول معه أن يتقربا أكثر ليقلص شعوره بالغربة معه.

عادا للبيت وعلمه الحروف كلها دفعة واحدة، رغم ثقل لسانه وحروفه الممطوطة البطيئة، استطاع "هاشم" أن يعلمه بصبر، لم تكن استجابة "علي" بطيئة ولا سريعة، كانت جيدة، جلس في حجرته يحفظها وبعد ساعتين خرج له مبتهجًا وهو يقول دون تلعثم أو بطء:

- لقد حفظت جميع الأحرف.

ابتسم "هاشم" له قائلاً:

- مبارك.. غدًا أعلمك الكلمات وكيف تكتب اسمك.

عاد لثقل لسانه وهو يقول:

- لما لا.. يكون.. الآن؟

- أنا أعرف هذه الحماسة سرعان ما تخمد وتتحول إلى انطفاء مدوٍ.. إذا أردت أن تتم شيئًا فعليك بالتأني، عليك بالروية في كل أمورك يا بني.

*****

"اليوم الثاني"

ذهب "علي" لإحضار الفطور وما زالت الأفكار السيئة تداعب رأسه كلما رأى المال، وغرق هاشم في أفكاره كالأمس حتى جاء وانتشله، وجود "علي" معه كان يلهيه بعض الوقت عن أزمته في مواجهة الموت، لا شيء يضاهي استئناس الإنسان بالإنسان مهما تطورت سبل التواصل، بعد أن تناولا الفطور أعد هاشم كوبين من الشاي، بينما يرتشفانه قال ليغزو الصمت الذي بينهما:

- ماذا ستفعل عندما تتعلم القراءة والكتابة؟

- سوف أقرأ.. قصصًا وأقرأ لك كل.. يوم.. سورة من القرآن.

صمت قليلاً وأكمل:

- ربما أكتب.. لأبي وأمي اللذين.. لا أعرفهما رغم.. أنني غاضب منهما كثيرًا.. لتخليهما عني.

- شيء قاسٍ أن يتخلى عنك أحد.. ابني أيضًا تخلى عني.

- لمَ أنت.. وحيد لهذه.. الدرجة؟

- كنت وحيد أبي وأمي رحمهما الله.. عندي ابنة تحبني وأحبها اسمها وردة، ولكنها متزوجة وعندها كثير من الأولاد.. تستطيع أن تقول فرقتنا الحياة دون إرادة منا.. وزوجتي متوفاة.

أومأ له "علي"، فأتبع "هاشم":

- كانت امرأة قانعة يكفيها القليل من كل شيء.. عدا الحب، تريد منه ما يكفي ويفيض..

كانت رزقًا من الله لإنسان لا يدرك قيمة النعم إلا بعد زوالها.

قاطعه "علي" قائلا ببطئه المعتاد:

- هل.. الأشخاص رزق من الله؟

- بالطبع.. كل عطية للإنسان هي رزق.

سأله:

- وكل أخذ هو.. عقاب!

يريد أن يعرف هل يعاقبه الله بفقدان أهله أم لا، فهمه هاشم فقال:

- أحيانًا الأخذ يكون عطية.

- كيف؟

حكى له:

- ذات مرة كنت أقف في الشارع أعد مبلغًا من المال، وإذا بلص خطفه من يدي وركض ركضت خلفه، وما إن تحركت حتى سقطت شرفة منزل موضعي، توقفت ونظرت خلفي بدهشة ورهبة، لا أعلم كيف لذلك أن يحدث، ولكني أظن لو لم يأخذ اللص مالي لكنت في وضع آخر.. أليس الأخذ هنا كان عطاءً للحياة؟

أومأ "علي" صامتًا، فاستدرك "هاشم":

- أعتقد أن العقاب فقط في الآخرة.. وهنا كل شيء يحدث لأن الله أراده أن يحدث لحكمة ما، الله لا يُسأل عما يفعل.

تطرقا لموضوع آخر، ولكنه أعاده قائلًا:

- وكيف.. تخلى.. عنك ابنك؟

- هاجر.

- ما معنى هاجر؟

- أن ينقل الشخص حياته إلى بلدٍ آخر.

قال يستعرض ثقافته الضئيلة:

- وأين ذهب؟ إلى تونس.. أم السنغال أم الجزائر؟

ضحك "هاشم" قائلاً:

- من أين عرفت تلك البلاد؟

- من الكرة.. كان منتخب مصر يلاعبها.

- العالم كبير جدا وبه بلاد كثيرة.

- كم مثلا؟ مائة؟

- أكثر.

نظر "علي" أمامه واستغرق في التفكير.. يحاول أن يتخيل ما حجم العالم وكم دولة به.. أما "هاشم" فقد شعر بالعطش فحاول النهوض ليجلب ماء، ولكنه تعثر وسقط.. منذ سمع الطبيب وهو مرتبك ويحاول الثبات، ولكن ارتباكه طال عضلاته، أخذ "علي" بيده وقال:

- ماذا كنت.. تريد؟

- كنت سأجلب زجاجة مياه.

ازدرد ريقه وقال:

- لما.. لم تخبرني؟

تجاهل "هاشم" ما قال وابتلع الغصة التي في حلقه وقال:

- إن قواي تخور حتى إنني ما عدت أقوم من السجود والركوع في الصلاة بسهولة.. لقد شارفت على الموت.

قال ذلك ودخل حجرته دوّن رقم هاتف "وردة" ابنته في ورقة وخرج أعطاها له وهو يقول:

- هذا رقم ابنتي عندما أموت أخبرها في الحال.

قبل أن ينام "علي" ظل يصارع أفكاره أيسرقه ويرحل أم لا، ولكنه بالنهاية اهتدى إلى فكرة

معاكسة تمامًا.

*****

"اليوم الثالث"

استيقظ "هاشم" فلم يجد "علي".. انتظره طويلا حتى يستيقظ، ولكن مر كثير من الوقت ولم يخرج له كعادته في اليومين الماضيين، اتجه لغرفته فلم يجده، انقبض قلبه ولعبت به الظنون كما يلعب الطفل بالكرة، ظل يفكر ربما رحل! "قد يكون شعر بقرب موتي حقا ووجد أنها مسؤولية كبيرة عليه فانسحب بهدوء ورحل دون أن يبلغني حفظًا لماء الوجه".

ينفض ذلك التفكير ويحدث نفسه "أم أنه سيعود الآن ليبدد ظنوني، لا أعرف، أشعر أنه تراجع"

"قد يكون ذهب لكلابه وقططه" "إن كان كذلك فلِم يغيب كل هذا الوقت"

في المكان الذي يأوي "علي" كان له بضعة أصدقاء لم يكونوا يهتمون به كثيرًا، ولكن كان له أيضًا أصدقاء من الكلاب وبعض القطط يقاسمونه الوحدة ويهتمون به كما لم يهتم به أحد، وبعدما عاش مع هاشم قرر أن يذهب لهم يوميًا يطمئن عليهم ويطمئنهم عليه..

مرت ساعة ولم يأت.

كانت الأفكار تلتهمه، مرت ساعة أخرى وما زال لا يعرف أين هو.

دعا الله كثيرًا أن يعود، ليس له أحد بعد الله الآن غيره، وقد أحبه حقا.. وشعر بالمسؤولية تجاهه، ولكنه تأخر أكثر من اللازم حتى أيقن أنه رحل، فخرج يتمشى بلا حيلة، بينما يسير لمح خريطة العالم معلقة في فاترينة مكتبة تبيع أدوات مدرسية، اشتراها على

الفور علّ "علي" يعود ويشرح له ويريه كم أن العالم كبير وبه دول كثيرة وبحار وأنهار.

شعر بالتعب فعاد باتجاه البيت، عندما صعد السلم وجد "علي" جالسًا على الدرج أمام الشقة يحيط ساقيه بذراعيه وملقيًا برأسه عليهما ويبكي، سمع نشيجه، فقال بدهشة:

- علي.. أين كنت؟!

رفع "علي" رأسه غير مصدق، فقد كان يظنه مات بالداخل؛ لأنه طرق الباب كثيرًا وظل ينادي "جدي.. جدي ها أنا علي" دون جدوى.

كان يريد الاتصال بابنته، ولكن الورقة المدون بها رقم الهاتف كانت بالداخل، فكان في ورطة حقيقية ولا يعرف كيف يتصرف بها، عندما سمع صوته ورفع رأسه ضحك على سذاجته ومسح دموعه بظهر يده وقال وهو يمسك عكازًا طبيًا بجواره لم يلحظه "هاشم" سوى الآن:

- كنت أجلب لك هذا.. حتى يساعدك.. على.. المشي بشكل جيد.

اندهش "هاشم" مرة أخرى وقال:

- إنها غالية.. كيف حصلت على ثمنها؟ ولِما تأخرت هكذا؟

- كان.. معي مبلغ.. وتدبرت الباقي.. من أصدقاء.. أعرفهم.

ابتسم "هاشم"، لم يشعر بهذه السعادة وهذا الاهتمام منذ زمن طويل، ولكنه قال محرجًا بعدما شكره:

- غدا تذهب لأصدقائك ترد لهم المال.. والآن ندخل.

قال وهو يفتح الباب دون أن ينظر له:

- لماذا كنت تبكي؟

لم يرد "علي"، خجل أن يعترف بما شعر، واصل "هاشم" بعدما دخلا:

- كنت تظنني مِتُ أليس كذلك؟

لم يمهله فرصة للرد وأكمل:

- انظر ماذا جلبت لك؟

- ما هذا؟

- خريطة العالم.. سأعرفك عليها.

في هذا اليوم عرف كل منهما قيمة الآخر لديه، رغم أنهما حديثا العهد بمعرفة بعض إلا أنهما انسجما معا وتآلفا في وقت وجيز، أصبحت علاقتهما كعلاقة مثالية لجد وحفيد، وكأنهما رحمات أرسلها الله لبعضيهما، فهيأ لهما التآلف السريع.

*****

"اليوم الرابع"

علّم "هاشم" "علي" كيفية كتابة اسمه وقراءة بعض الكلمات الصغيرة المكونة من ثلاثة أحرف وكتابتها، وكيفية كتابة اسمه هو "هاشم" وقراءته، كان هاشم كلما بدأ أو فرغ من تعليمه لعلي يكتب "هاشم"، تفصيل دقيق لرغبة لا شعورية منه في البقاء، يريد أن يترك شيئًا في الدنيا يدل عنه عندما يرحل ليخبر الأبدية أنه كان هنا يوما.

وعرفه على العالم من خلال الخريطة، عرف علي أسماء بلاد كثيرة أهمها البلاد العربية، كان يطبق ما تعلمه من القراءة على أسماء البلاد، لاحظ أن سوريا نفس حروف روسيا، ابتهج عندما اكتشف ذلك بنفسه، وكأنه فك رموز حجر رشيد وراح يبلغ "هاشم" وهو مسرور دون أن يتلعثم:

- جدي.. انظر إن سوريا نفس حروف روسيا.

استدرك شارحًا ببطء:

- إذا أخذنا.. الحرف الثالث من.. سوريا.. ووضعناه في.. الأمام ثم.. الحرف الثاني أصبحت روسيا.. إذا كانت البلاد أشخاصًا.. لربما أصبحا توأمين.

شعر "هاشم" بالأسى وتحدى مرارة أصابته لسماع ذلك وأجبر نفسه على الابتسام كي لا يخمد حماسه وقال:

- صحيح.

لم يرد أن يخبره عن الحروب وفظاعة العالم وآثامه وما تفعله روسيا في سوريا تحديدًا، لقد كان بريئًا أكثر من اللازم، لم يرد أن يفسد براءته بتوضيح الصورة، ذات يوم سيكبر ويرى العالم على صورته الحقيقية لا الخريطة، سيرى كل شيء.

ولكن "هاشم" كان سعيدًا بما يتعلمه علي على يديه، رأى أن عمره لن يذهب سدى مقابل هذا العمل الذي جعله يرى فائدة ومعنى من حياته.

أما "علي" فلأول مرة يرى قيمة لحياته، دائما ما كان يظن أنه لا يستحق شيئًا فجاء "هاشم" بدد هذا الاعتقاد بداخله.

*****

وهما يرتشفان الشاي بعد العشاء قال "هاشم" وهو يرفع يده بالكوب:

- يالجمال هذا المشروب!

صمت قليلًا وأكمل متهكمًا:

- أصبحت أعثر على الجمال في آخر أيامي.

لم يعرف "علي" بماذا يرد فواصل "هاشم" كأنه يتحسر:

- الجمال في كل شيء حولنا.. درّب نفسك على الإحساس به، إنه ينصرف فقط عمن ينصرف عنه.. أما من يبحث عنه ربما يجده في لحظة هادئة أو في غيمة صغيرة أو لون عصفور أو ضفيرة فتاة مجدولة بعناية، الجمال في أبسط الأشياء، ولكن آفتنا أننا نبحث عنه في الأشياء الصاخبة فقط.

تحدى "علي" صمته المعتاد، رأى أن هاشم قد آمن له تمامًا بينما هو كانت تأتيه أفكار سيئة تجاهه، فقال:

- أنت.. إنسان طيب.

تفاجأ "هاشم"، طوال عمره لا يعرف أهو طيب أم شرير، إذ له قصة مع "نادية" فتاة كان يحبها

في الماضي حتى وصلا لمفترق طرق، كان عليه أن يختار، ولكنه فضَّل نفسه وتركها تواجه

مصيرًا غير معلوم، هذه القصة كانت كشوكة في حلق ضميره.. فرد على "علي" يقول:

- أنت تراني طيبًا لأنك كذلك.

- إنني أخاف.. الناس.. كثيرًا، ولكن أنت لا.

- لقد أشفقت عليَّ وتعاطفت معي.

لم يكن "هاشم" يفعل شيئًا إلا لوم نفسه، فلم يستطع تصديق "علي".

*****

"اليوم الخامس"
الحادية عشرة صباحاً

بدأ "هاشم" يفقد وزنه وشهيته، كان يجاهد ليأكل ما يقويه، ويعاوده الألم المبرح ويذهب من حين لآخر، كل يوم يشعر أن هذا اليوم هو الأخير، فكان يطيل في صلاته ويبكي ويتضرع لله ألا تسوء صحته أكثر من هذا أو أن تحدث معجزة ويُشفى، يؤمن أن زمن المعجزات قد ولى، ولكنه يعلم أن الله على كل شيء قدير وما شفاؤه على الله بعزيز.

في هذا اليوم جاءته رغبة لأن يذهب لكل من له عنده مظلمة ليسامحه، نادى "علي"، دعاه ليجلس جواره على سجادة الصلاة بالإشارة، جلس "علي" صامتًا، فقال "هاشم":

- أريد أن أذهب لكل شخص ظلمته أو آذيته دون قصد مني وأطلب منه السماح.

لم يكن "هاشم" ملاكًا، فقد ظَلم وظُلم، لا بد أن تترك الحياة بصمتها في كل قلب مهما جاهد ألا يطوله شيء من تلوثها، حاول أن يتذكر من ظلمهم، ولكنه لم يتذكر سوى ثلاثة.. خالد الكواملي زميله في العمل.. حدث خلاف بينهما تطور لمشادة كلامية وتشابك بالأيدي، حينها دفعه للحائط ففتحت رأسه، لم يكن يتصور أن يفعل ذلك، كان يدافع عن نفسه لا أكثر، ولكنه لم ينس أبدًا شكل الدماء وهي تنزف من رأس زميله، لم يغفر لنفسه تلك الحادثة؛ لذا تذكرها سريعًا.

والثاني "همام" زميله في المرحلة الإعدادية، كان إنسانًا طيبًا ومسالمًا، والطيبة خطيئة كبرى في مجتمعاتنا، كثيرا ما كان يدبر له الطلاب المقالب والمكائد، ذات يوم أرسل أحدهم جوابًا غراميًا لفتاة معهم في الفصل إذ كانت مدرسة مشتركة وعندما وجدت الفتاة الجواب سلمته لأحد

المُعلمين تشكو له هذا التجرؤ، فجمع المعلم كل الصبية وقال وهو ممسك بالجواب بنبرة متوعدة "من فعل هذا؟" أشار اثنان نحو همام أحدهما محمود كاتب الجواب، لعلمهما أن همام لا يجيد الدفاع عن نفسه، كان "هاشم" يعلم أن محمود من بعثه فقد رآه بأم عينيه، ولكنه اختار أن يصمت خوفًا من محمود وعصبته، شهد الجميع على همام بالباطل، أحدهم قال إنه رآه وهو يضعه، وأحدهم قال إنه رآه وهو يكتبه، أنكر "همام"، ولكن التهمة التصقت به كما يلتصق الوليد بأمه، هذا الموقف أيضًا حُفر في ذاكرة "هاشم"، كلما تذكره شعر بالعار من نفسه، أصابته لعنة السكوت عن الحق.

أما الثالثة فكانت "نادية" الفتاة التي كان يحبها في الماضي البعيد، ولكنه تركها رغم شدة حبه لها بعدما شاع في القرية خبر ارتباطهما، ولوّك الناس سيرتهما كالعلكة بين أسنانهم، لم يكن بينهما سوى حب طاهر بريء، ولكن الناس كعادتهم أضافوا الكثير من الخيال، وبدلًا من أن يتمسك بها ليدفع عنها هذه الأقاويل تخلى عنها وتركها تواجه وحدها هذا المصير القاسي، لأنه شعر بالإهانة بعدما ضربه أحد أخويها وكاد أن يقتله، كانت كبرياؤه أكبر من حبه، نزل مع خاله القاهرة منذ ذلك الحين استكمل دراسته الجامعية وعاش وتوظف وتزوج فيها وتناسى أمرها ليثأر لكرامته، كان أهل نادية لم يعرفوا لغة

للتفاهم سوى البطش، تذكر "هاشم" كل ذلك وراح يفكر ترى ماذا فعلت بها الأيام؟! هل ما زالت حية أم توفيت كزوجته! أو ما زالت تتذكره من الأساس؟ أو سترغب في رؤيته؟ وهل يصح أن يزورها؟ لم يفكر فيما هو صحيح وغير صحيح كل ما أراده أن تسامحه، فقد كان نذلًا وحقيرًا، هكذا نعت نفسه ولم تعزِه فكرة أنه كان صغيرًا في هذا الوقت ولا يملك كثيرًا من الحكمة، عاد يلوم نفسه، كل هذه السنوات لم تمح هذا التفكير من رأسه ونعته لنفسه بهذه الصفات، لا ينسى الإنسان شخصًا ظلمه.

قص لـ"علي" تلك القصص التي حاول كثيرًا أن يختلق مبررات لها ليستطيع أن ينظر في المرآة لنفسه دون خجل، ولكن كل المبررات فشلت، كان ضميره اليقظ لعنة تلاحقه، لو كان بلا ضمير لارتاح، ألهمت "علي" قصة "نادية"، فقال ببطء كعادته، يمط كلمة دون أخرى:

- هل من.. الممكن أن تحبني.. فتاة ذات يوم؟

- بالتأكيد.

- أعتقد.. أنه لن يحدث.. أبدًا.

- لمَ تقول ذلك؟

- لأنني أخرق.

صمت قليلًا وواصل: وليس بي شيء يُحَب.

- غير صحيح.. إن بك كل المعاني التي تُجَمّل الإنسان.. كالطيبة وحسن الخلق والصدق.

رغم أن "هاشم" كان يعني كلامه إلا أن "علي" لم يصدقه، هو أيضًا مشوه من الداخل مثل "هاشم"، فأعاده للموضوع الأساسي مرة أخرى، وقال:

- وكيف.. سنجدها؟

أكمل موضحًا: أعني.. نادية البسطاوي.

- سوف أتصل على "وردة" تستقصي عنها.

- و"خالد" و"همام"؟

- أعرف عنوان "خالد" سنذهب له اليوم.. و"همام" بالتأكيد مقيم في البلدة، سوف تستقصي "وردة" عنه أيضًا.

قال ذلك "هاشم" ثم هاتف "وردة" في الحال سألها إن كانت تعرف شيئًا عن همام رفعت، أجابته "نعم أعرفه.. لمَ السؤال؟" أجابها بسؤال آخر إذا كانت تعرف شيئًا عن نادية البسطاوي، لم تعرفها فقال لها أن تسأل إحدى النساء الكبار في القرية بالتأكيد سوف يكون عندهم خبر، بعد نصف ساعة عاودت الاتصال به، أخبرته أنها اسمها أم راضي وتعيش في أسيوط في قرية الدواورة التابعة لمركز البداري وأملته العنوان، سألته بفضول لمَ؟ لم يقل الحقيقة، قال إن لها عنده مبلغًا من المال سوف يذهب يسدده لها في الغد، ومن هناك سيذهب لها لأنه اشتاق لها كثيرًا، أغلقت معه فَرِحة وأخبرته أنها ستنظره من الآن.

بعدما أغلق معها استعد هو و"علي" للذهاب لخالد الكواملي في حلوان.

*****

نزل الاثنان السلم وعبرا الكوبري واتجها نحو موقف السيارات، كان أقرب لهما من محطة المترو، بعد نصف ساعة وصلا حلوان، نزلا في شارع منصور، أخرج "هاشم" من جيب قميصه نوتة صغيرة كان مدونًا بها أرقام الهواتف والعناوين، وجد العنوان في شارع المراغي سأل عنه أحد المارة ووصفه له، كان متقاطعًا مع شارع منصور، أخذ "علي" وسار الاثنان كما وصف لهما، سارا كثيرًا حتى وجدا رقم العقار، أجهد "هاشم" من المشي، حمد الله أن الشقة في الطابق الأرضي.. صعد فقط سلمًا من ست درجات ودق الجرس ففتح له شاب في نهاية العشرينيات، وجد "هاشم" و"علي" جواره فصمت منتظرًا سؤالا ليجيب عنه، فقال "هاشم":

- أنت ابن خالد؟

أومأ برأسه قائلًا: أجل.. هل هناك شيء؟

- كنت زميل والدك في العمل.. أهو موجود؟

- لقد توفي والدي منذ شهرين.

صعق "هاشم"، فقال متأثرًا حقًا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ربت على كتف الشاب وواصل: البقاء لله.

فأفسح لهما الباب وهو يقول: تفضل إذن!

- لا داعي.. رحم الله والدك.

بعدما أمّن قال: كنت تريد شيئًا؟

- كنت فقط أريد رؤيته.

لم يجد الشاب كلمات فقال "هاشم" وهو يرحل: أستأذنك.

- تفضل.

شعر بالحزن الشديد ولام نفسه كما دأب، لأنه لم يعتذر له حينها كما يليق بالموقف، كان اعتذارًا فاترًا إثر المشاحنة بينهما، ها هو مات، ماذا قدّمت لهما المشاحنة وكيف سيعتذر له الآن، انتهى كل شيء، سأل نفسه "لماذا يتصارع الناس وكلنا سنموت بالنهاية؟" هذه الحقيقة كافية لأن تجعل مذهبنا في الحياة الخروج منها دون شيء لنا أو علينا.. كلنا سننتهي فلا قيمة للصراعات والمشاحنة، ينبغي أن نبحث عن الحب والسلام لنعبر بخفة.

*****

خرج الاثنان من العقار، وكان "هاشم" بلغ منه الإرهاق مبلغه فأراد الجلوس نظر حوله، وجد الحديقة اليابانية في نهاية الشارع، كانت تبعد عنهما حوالي 60 مترًا فاقترح على "علي" أن يجلسا بها حتى يرتاح، بعدما قطعا التذاكر جلس "هاشم" على أول مقعد قابله بعد البوابة وجلس "علي" جواره، قال "هاشم" فور جلوسه:

- لقد مات.

لم يعرف "علي" بماذا يرد، فواصل "هاشم":

- ماذا استفاد الآن من مشاكستي.. لم تؤخر أجله، لم تمنحه أي مزايا البتة، فلِمَ؟

كنت أود الاعتذار له لأني أدركت كل هذا.

أخذ يشهق ويزفر وهو يقول يائسًا: على كلٍ رحمه الله.

ردد "علي" جملته الأخيرة: رحمه.. الله.

بعدما ارتاح قليلًا استند "هاشم" على العكاز ونهض وهو يقول:

- هيا نأخذ جولة في الحديقة.

عندما نهض رأى تمثال "وجه الحياة" لم يكن يلحظه، عندما دخل أراد الجلوس وحسب كان التمثال عبارة عن رأس امرأة مبتسمة ومغمضة العينين، أخذ "علي" وسار يستكشفها.

استمتع برؤية الأشجار العتيقة وبرك المياه، كانت الحديقة على الطراز الآسيوي.. حين رأى تمثال بوذا وحوله تلاميذه الثمانية والأربعون قال لـ"علي":

- هذه الحديقة ظهرت في فيلم ما.. أحاول تذكره.

بعد دقيقة قال:

- ظهرت في فيلم طير أنت.. هل تعرفه؟

- لا.

- إنه فيلم جميل وجدير بالمشاهدة.

قال ذلك وأكمل جولة استكشافه.. كان مستمتعًا بكل شيء يراه.

كأنه طفل يتعرف على الحياة والأشياء من جديد، اقتراب موته جعله يدرك قيمة كل شيء.

عاد الاثنان في المساء وتجهزا للسفر في الغد، سأله هاشم:

- هل ركبت قطارًا من قبل؟

- لا.

- رغم أني لا أحبه، ولكن سنركبه غدا حتى تراه.

*****

"اليوم السادس"
السابعة صباحاً.

اتجه "هاشم" بعكازه الذي أصبح لا يفارقه و"علي"، نحو محطة القطار، قطعا التذاكر وركبا في موعدهما، ركب "هاشم" جوار النافذة وركب "علي" أمامه جوار النافذة ذاتها، يتطلع هنا وهناك، كان "علي" يشعر بالرهبة، الناس من حوله كثيرة وينظرون لبعضهم وهو يخشاهم ويكره الزحام، يشعر أن الجميع ينظر له، كان التجمع الوحيد الذي لا يهابه هو الصلاة في المسجد يوم الجمعة، كلٌ يكون مشغولًا بالخطبة، لاحظ "هاشم" توتره وأنه يتصبب عرقًا، فقال:

- ما بك يا "علي"؟ أنت بخير؟

لم يرد، فكرر "هاشم" سؤاله بقلق أكبر:

- أنت بخير؟

أومأ يمينا ويسارًا أن لا، فقال "هاشم":

- بماذا تشعر؟

بصعوبة قال:

- خائف.

تحرك القطار، فقال "هاشم":

- من ماذا؟

- لا أعرف.

أستند "هاشم" على عكازه وقام استأذن ممن بجواره، وبدلا الأماكن، جلس جوار "علي" وأخذ برأسه وضعها برفق على فخذه وراح يقرأ له قرآنًا وهو يمسح على شعره، رغم أن "علي" رهب هذا التلامس وضايقه، ولكنه بعد دقائق استكان ونام طوال الطريق، كانت علاقة "علي" بـ"هاشم" كجد وحفيد، ولكن الذي يتعود على الظلام يرهبه النور أول الأمر، ظل نائمًا حتى وصلا، أيقظه "هاشم" واتجها إلى العنوان المنشود يسألان عن بيت أم راضي، حتى وجدوه أشار لهما أحد الأطفال على البيت، كان بابه مفتوحًا وأمامه أطفال يلعبون، فقال واحد منهم:

- تريدون من؟

قال "هاشم":

- أم راضي.

قال الطفل بفخر:

- ستي.

فقال "هاشم":

- أخبرها أن ضيوفًا ينتظرونها بالخارج.

دخل الولد، فسأل "هاشم" أحد الأطفال الآخرين:

- هل جدك بالداخل؟

- جدي ميت.

ارتاح لجوابه، لم يكن يعرف ماذا سيفعل إن وجده، دقيقة وخرجت أم راضي بعباءتها السوداء ورأسها المعصوب ممسكة بيد

حفيدها، تغيرت ملامحها كثيرًا وعبس بها الدهر ورسم خطوط التجاعيد حول فمها وعينيها، خرجت وهي تقول مهللة:

- أهلا.. أهلا، يا ألف مرحب.

وهي ما زالت لم تعرف من هذان، فقال "هاشم":

- كيف حالك يا نادية؟

استغربت، كيف يعرف اسمها، وكيف يقوله ولا يقول أم راضي، سكتت مدهوشة، وتركت يد حفيدها ليذهب لرفاقه، فقال:

- مضى كثير من الوقت.. ألا تذكرينني؟

لم تتذكره، شكله تغير كثيرًا، اغمقت بشرته أكثر من درجتين وغزا الشيب رأسه وأصلع من الأمام وتضخم أنفه، لم تكن قد رأته منذ أكثر من خمسة وأربعين عاما، فقالت:

- لا تؤاخذني.. من أنت؟

- عودي بذاكرتك للوراء.

ضيقت عينيها وهي تقول:

- هاشم عبد الحي؟

أومأ مبتسمًا، وهو يقول:

- هو.

ازدردت ريقها وتذكرت أشياء كثيرة مريرة وسعيدة، ولكنها ما زالت مدهوشة ولم تعرف سبب الزيارة، فقال "هاشم":

- ألا تدعيننا للدخول؟

بارتباك قالت:

- تفضل.. تفضل.

أجلستهما في "المندرة" ونادت حفيدتها الكبرى وأخبرتها أن تعد الشاي، قالت مبتسمة فور مغادرة الفتاة:

- هذه نادية بكرية ابني راضي أسماها على اسمي.

- بارك الله فيها.

أشارت نحو "علي" وهي تقول:

- هذا حفيدك؟

لم يجبها بالنفي أو الإثبات قال:

- اسمه "علي".

صمت قليلاً وأكمل:

- كيف حالك؟

- في فضل ونعمة.. كيف حالك أنت؟

- في خير حال.

لم تعرف ماذا تقول، ولكنها تعجبت في داخلها، صمتت تريد أن يفصح عن سبب الزيارة بنفسه دون أن تسأله هي، فقال:

- أما زلتِ غاضبة مني؟ لقد كنت وغدًا في الماضي.

ابتسمت "نادية" ساخرة:

- الزمن يُنّسي كل شيء يا "هاشم".. يُنّسي أعظم حب وأسوأ حب.. كل شيء ينتهي مصيره النسيان.

- أعرف أنني كنت قاسيًا في ردة فعلي وهذا بالطبع آذاكِ.

- صدقني لقد نسيت شعوري وقتها، مر كثير من العمر وها أنا قد تزوجت وأنجبت وعندي أحفاد وأنت كذلك.

مر العمر و"نادية" لم تجد سوى الغفران، في زمن آخر لم يكن ذلك ردها، ولكنها في خريف العمر ولم تعد ترتجي من الحياة شيئا، ابتسم "هاشم" قائلا:

- تغيرتِ يا "نادية".

- كلنا نتغير.

بفضول محبة قديمة قالت:

- كيف سارت حياتك؟

- بعدما انتقلت للقاهرة بعامين تزوجت من امرأة أشاروا لي بها، ولكنها ماتت قبل ستة أعوام.

- رحمها الله.

قالت "نادية"، بينما أكمل "هاشم":

- توظفت في مترو الأنفاق وأنجبت ولدًا وفتاة، الولد هاجر والفتاة في العزب تزوجت ابن أحد أقاربي، عندي منها ستة أحفاد.. وأنت كيف سارت أمورك؟

- تزوجت بعد خمسة أعوام بعدما غادرت أنت القرية.. وأنجبت راضي، وسالم، ومجدي وهناء.

استدركت حزينة:

- مات زوجي العام الماضي.

قال "هاشم":

- رحمه الله.

كانت حفيدتها جاءت بصينية الشاي والفاكهة وضعتها وغادرت ثانية بعد أن قطعت بينهما الحوار، وكان "هاشم" يأتيه ألم يجد في إخفائه، فقالت "نادية":

- كيف صحتك؟ أراك هزيلا.

- لا شيء، فقط أحتضر.

ضربت على صدرها دون إرادة منها وقالت:

- بعيد الشر.. ماذا بك؟

- آتاني ورم خبيث وانتشر في أمعائي.

قالت "نادية" بنبرة ترجو بها الله:

- شفاك الله شفاء لا يغادر سقمًا.. قادر على كل شيء.

تمنى ذلك، ولكنه قال متماسكًا:

- فات أوان الدعوات، كل ما أريده منك أن تسامحيني.. أريد أن أتخفف من بعض آثامي قبل أن أرحل.

- سامحتك.. سامحتك من كل قلبي.. كل شيء نصيب.

ارتاح "هاشم" بهذا الجواب واستند على عكازه ونهض فنهض "علي" الذي كان صامتًا طوال الجلسة، بالتبعية، فقالت "نادية":

- لمَ الوقوف؟ الغداء يجهز.. لن تغادرا قبل الغداء.

- إنني ذاهب إلى ابنتي.. هي أيضًا تعد الغداء الآن.

- عندما تصل سيكون عشاء وسوف تجوعان.

- شكرًا على حسن استقبالك.

لم يدع لها مجالا للاعتراض وقال وهو يتجه نحو الباب:

- سعدت بلقائك يا "نادية".

سارت خلفه وهي تقول:

- وأنا أيضًا.. إن شاء الله نسمع عنك كل خير.

بعدما خرج من الباب، نظر خلفه يلقي عليها نظرة الوداع، قائلا:

- وداعًا.

لوحت "نادية" بيدها ببطء وهي تقول دامعة:

- وداعًا.. وداعًا.

كانت "نادية" تبكي أشياء كثيرة، غير أن "هاشم" يحتضر، حبًا قديمًا ومشاعر استهلكت في غير محلها.. تذكرت كم كانت تحبه وكم آلمها فراقه، وتذكرت قسوته في الاختيار.. كان يمكن أن يختارها رغم كل ما حدث.. عادت تتساءل من جديد لمَ اختار البعد، لمَ قسا عليها مع إخوتها والبلدة جميعها.. غادر هو القرية وتزوج وأنجب وظلت هي منبوذة أعوامًا حتى تزوجت من خارج البلدة والمحافظة كلها.. ظلت أعوامًا تنتظر عودته، أو أي خبر عنه، أو حتى اعتذارًا يطفئ بعضًا من النيران التي تلتهمها بلا هوادة، لم يكن لها ذنب سوى أنها أحبت.. أكان يجب أن تنتظر أكثر من خمسة وأربعين عامًا أو أن يأتيه إنذار بالموت حتى يعتذر لها؟!

ما قيمة الاعتذار الآن وما نفعه بعد أعوام من المعاناة وكره الذات والدمع الهادر؟

لم يجدِ الاعتذار نفعًا، بل نكأ جرحها من جديد، بعدما ضمدته وحدها ومضت ظانة أنه التأم.

*****

بعدما خرجا من عند "نادية" قال هاشم لـ"علي" يطمئنه:

- لن نركب القطار مرة أخرى، سوف نأخذ "تاكسي".

سارا حتى أول الطريق العمومي وركبا سيارة أجرة بعدما ابتاع "هاشم" أقفاصًا من الفاكهة ولحمًا وخضراوات وبقالة، جعل السائق يحملها إلى حقيبة السيارة، قال له:

- سوف أراضيك.

وفي الطريق قال لـ"علي":

- لا أريد أن تعرف "وردة" شيئًا عن مرضي.. أعرف أنك لن تتكلم، ولكن أخبرك من باب الحيطة.

أومأ له "علي" صامتًا وسأله:

- هل الطريق طويل؟

- أربع ساعات على الأكثر.

أخذ الطريق من أسيوط لقرية العزب في مركز دشنا أكثر من ثلاث ساعات والنصف، كان "هاشم" يفكر لقد رأى امرأة أخرى غير التي كان يحبها، إن الزمن يفتك بنا تتغير ملامحنا وعواطفنا وأفكارنا وكل شيء، نحن نتغير باستمرار كأننا نولد من جديد كل عام، مشاعره تضاربت، شعر نحوها بالشفقة لا يعلم لمَ وشعر نحوه بالغضب واللوم، ورغم أنه لم يقفز قلبه من موضعه عندما رآها كما كان يحدث في الماضي ولكنه تمنى لو تمسك بها وتزوجها رغم أنف

الجميع، كانت على استعداد أن تفعل أي شيء لتكون معه ولكنه خذلها خذلان العمر، ما ضر الناس لو كانا تزوجا وخاضا الحياة معًا؟

ربما أصبحا أقل بؤسًا مما هما عليه الآن! لم يعرف الحكمة من عدم زواجهما، ولكنه قَبل ورضي، كان "علي" في هذا الوقت يطبق ما تعلمه من القراءة، يحاول قراءة أحرف السيارات ويكون بها كلمات، واللافتات بالطريق وأسماء المحال التجارية، قرأ كثيرًا من العبارات حتى وصلا أمام بيت "وردة"، كانت الساعة السادسة والنصف مساء، لمحه "عبد الل"ه أحد أحفاده فقال مبتهجًا:

- جاء جدي.. جاء جدي.

خرجت "وردة" تحمل رضيعتها وهي تركض نحو أبيها متهللة، عانقته وقبلت يده وجبينه وهي تقول:

- اشتقت لك كثيرًا.. نورت العزب.. نورت الدنيا.

رأت عكازه وضعفه، فقالت حزينة:

- لما هذا العكاز.. كيف صحتك؟

قال "هاشم" مداعبًا:

- كبر أبوكِ يا بنت.

كان في هذا الوقت السائق ينزل الحاجيات من حقيبة السيارة، فقالت تغازله كعادتها:

- كلما كبرت ازددت حلاوة.

لاحظت وجود "علي" أخيرًا فقالت:

- من هذا؟

توتر "علي" من هذا السؤال وهذا الموقف كله، لم يعتد على أي شيء من هذا، كان منفصلا تماما عن الواقع، فقال "هاشم" الذي لم يعد جوابا لهذا السؤال:

- هذا "علي" صديقي الجديد.

تعجبت "وردة" ولكنها ابتسمت ودعتهما للدخول بعدما فرغ السائق وأخذ حسابه وغادر، عندما دخلا، جاءت "نور" مسرورة من الخارج بعدما علمت من أخيها أن جدها قد جاء وهي تقول:

- أين جدي؟

*****

بعد تناول العشاء، الذي لم يذقه "علي" رغم جوعه من الخجل، دعا "عبد الله" "علي" للعب معه هو وإخوته، كان عمر "عبد الله" عشرة أعوام بعد "نور" التي تبلغ اثني عشر عامًا، يليه "عبد الرحمن" سبعة أعوام يليه "محمد" ستة أعوام يليه "محمود" أربعة أعوام، قال له:

- تلعب معنا؟

توتر "علي"، ونظر لـ"هاشم" يستنجد به، كان خائفًا أن يتحدث فيضحكوا على تلعثمه، كان متوترًا من الموقف كله منذ جاء، لو يعرف أن الأمور ستسير كذلك لما جاء ولفضل أن ينتظره في القاهرة، فقال "هاشم":

- ماذا تلعبون؟

قالت "نور":

- نلعب الشايب.

نظر لـ"علي" قائلا:

- هل تعرف تلك اللعبة يا "علي"؟

أومأ يمينا ويسارًا أن لا، فقالت "نور":

- تعال.. سوف نعلمك.

شعر بالارتباك، ولكنه كان سعيدًا بعض الشيء أن "نور" تهتم أن يلعب معهم، ذهبوا للصالة وترك "هاشم" مع ابنته و"بكر" زوجها لينهالا عليه بالأسئلة عن "علي" من هو ولماذا جاء معه ولماذا هو مريب ولا يتكلم.. كان ضيق "بكر" واضحًا، ولكن "هاشم" تجاهله.

*****

تحلقوا في دائرة، ووزع "عبد الله" أوراق "الكوتشينة" على الجميع، وشرحت "نور" قواعد اللعبة لـ"علي"، لم تعجبه اللعبة نظرا للأحكام، لا يحب أن يحكم على أحد بشيء ما، وخشي أيضًا أن يكون المحكوم عليه في النهاية ولكنه خجل أن يفصح عن أنها لم تعجبه وأكمل وهو يدعو الله ألا يلصق به الشايب، كانوا جميعا يضحكون ويتبادلون الدعابات ويتوعدون من سيلصق به الشايب، و"علي" فقط مبتسما، سأله "محمد" بفضول:

- لما أنت صامت هكذا؟

قال "علي" وهو يمط الأحرف:

- ماذا.. أقول.

فقال "عبد الرحمن" متهكمًا:

- الحمد لله أنه لا يتكلم.. لقد أخذ في نطق الكلمتين ساعة.

تضايق "علي"، شعر بالحرج والإهانة، كان يريد أن يبكي ولكنه تماسك، شعرت به "نور" فلكزت "عبد الرحمن" في كتفه وهي تقول:

- كفاك غباء.

وقال له "عبدالله":

- إن شاء الله سوف يلصق بك الشايب.

مر الموقف سريعًا دون أن يوقفوا اللعب، وظلوا يختطفون الأوراق من بعضهم وينسحبون واحدًا وراء الآخر ممن تنتهي أوراقه، حتى بقي "علي" و"نور"، كان "علي" في ورطة، هناك احتمال كبير أن يكون هو المحكوم عليه ماذا سيفعل وهو لا يعتاد على تلك الأجواء، كان سيكون الموقف بسيطًا لو لم يكن مصابًا بالرهاب الاجتماعي وتعامله مع الناس يجعله يبذل مجهودًا كبيرًا، ولكن تعامله مع الناس كان بمثابة أسلوب تعذيب في أمن الدولة، على عكس ما تمنى انتهت الجولة والتصق الشايب به، ازدرد ريقه في محاولة لكبح خوفه، جمعوا الأوراق وجعلوه يختار لكل واحد ورقة، تخيل أن قطع إصبع من قدميه كما حدث له في الماضي كان أهون عليه من هذا، قالت "نور":

- إنه ضيف وجديد في اللعبة فلن أحكم عليه.

قال "محمد": وأنا أيضًا.

و"محمود" الصغير قلدهم، وقال "عبدالله": وأنا مثلكم.

أما "عبد الرحمن" الذي كانت ورقة أحكامه بها رقم أربعة قال:

- سوف أحكم أنا.

لم يمهل أحدًا فرصة للرد وأكمل: اجلب لي ماء.

لملمت "نور" الأوراق وقالت:

- لا تفعل شيئًا يا "علي".. انتهت اللعبة، إنها لعبة سيئة أليس كذلك؟

أومأ لها إيجابًا، فأخذ "عبد الرحمن" الأوراق من يدها وقال:

- سوف نلعبها نحن مرة أخرى لا تلعبا معنا لقد أفسدتما اللعبة.

ابتدأوا جولة أخرى دون "نور" و"علي" الذي تركهم وخرج يجلس وحده أمام البيت، لقد أرهقوه بما يكفي، دقائق وخرجت "نور" جلست بجانبه وقالت:

- "عبد الرحمن" سيء الطبع.

مالت نحو أذنه وأكملت بهمس: كجدي.

نظر لها متعجبًا، فقالت:

- ليس جدي "هاشم" بالطبع، بل جدي فتحي أبو أبي.. أمي دائمًا تقول إنه مثله.. أما جدي "هاشم" فأنا أحبه كثيرًا.

أومأ لها صامتًا، فقالت بوداعة:

- لا تخف من الحديث معي فلن أضحك أو أعلق على طريقة كلامك.

صمتت قليلا وأكملت: أخبرك بسر؟

لم تنتظر جوابه واستدركت: تلك الطريقة حلوة.

وسألته لكي يتكلم: في أي صف أنت؟

انتظر طويلا ثم قال بثبات دون تلعثم: لم أدخل مدارس.

- لِمَ؟

لم يعرف ماذا يقول، فلم يرد، ظل ناظرًا أمامه فقالت "نور" بشيء من الحرج:

- جيد، المدارس مملة على كل حال.

ازدرد "علي" ريقه وقال بلسان ثقيل:

- أيمكنك أن.. تخبري جدك.. أنني أريد أن.. نغادر، ولكن ليس.. أمام أحد؟

- ستغادران في الصباح بالتأكيد.. جدي عندما يزورنا يغادر في اليوم التالي.

ظل يفكر ويلوم نفسه لمَ أقحم نفسه في موقف كهذا، إنه غير مؤهل للتعامل الآدمي، الوحدة كانت مأواه الوحيد، في وحدته لا يزعجه أحد ولا يؤلمه أحد، في وحدته هو حر تمامًا، أما الآن يشعر أنه مقيد بالأغلال حتى كاد يختنق، كل ما كان يتمناه في هذا الوقت أن يرحل من هذا المكان، فقالت "نور":

- سيمر الوقت سريعا، لا تقلق فقط ستنام وفي الصباح ترحلان.

ابتسم "علي" أخيرًا، وابتسمت هي الأخرى.

حديثه القصير مع "نور" جعله يهدأ، كأنما كان يركض طوال حياته وأخذ استراحة.

*****

"اليوم السابع"

في الصباح بعدما تناول "هاشم" من الفطور ما استطاع، وتناول "علي" فقط ما يسد رمق جوعه بعد إلحاح، أخذه "هاشم" واتجه نحو بيت "همام"، كان معهما "عبد الله" ليرشدهما، بعد شوارع متداخلة قطعوها أشار لهما "عبد الله" نحو البيت وأكمل هو طريقه إلى "درسه". طرق "هاشم" الباب الخشبي وانتظر هو و"علي"، حتى فتح لهما فتى في السادسة من عمره، كان حفيد "همام"، قال له "هاشم":

- هذا بيت "همام"؟

أومأ الفتى قائلًا: أجل.

داعب "هاشم" شعر الفتى قائلًا: ومن تكون يا حلو؟

- أنا أمير ابن ابنه أحمد.

- جدك بالداخل؟

- أجل.

جاء صوت نسائي من الداخل، كانت أم أمير تقول:

- من يا أمير؟

- رجل يريد جدي.

كانت تغسل الصحون، فخرجت تمسح يدها في عباءتها ترى من، وجدت "هاشم" و"علي" من ملابسهما عرفت أنهما ليسا من أهل القرية، فقالت مرحبة:

- أهلاً.. أهلاً.. تريدان عمي؟ إنه بالداخل، تفضلا.

وجهت حديثها لأمير قائلة: أخبر جدك أن ضيوفًا يريدونه.

دخل "أمير".. ودخل "هاشم" و"علي" خلف أمه، أجلستهما في حجرة استقبال الضيوف، دقيقة ودخل لهما "همام"، كان نحيلًا يغوص في جلبابه، تغير كثيرًا واغمقت بشرته درجات كثيرة إثر عمله في الأرض سابقًا، قبل أن يعوقه الكبر ويتولى أولاده رعايتها، وامتلأ وجهه بخطوط التجاعيد، لم يتعرف على "هاشم"، "هاشم" أيضًا لو كان رآه في الطريق لم يكن ليعرفه، أحدث الدهر بالاثنين الكثير، حيا "همام" الاثنين فقال "هاشم":

- ألم تعرفني؟

ابتسم ابتسامة خجل قائلًا:

- لا تؤاخذني.. أصبحت الذاكرة تخذلني.

ما زال "همام" كما عهده قديمًا سمحًا بشوشًا غيّر الزمان ملامحه، ولكن لم يغير طبعه، فقال "هاشم":

- أنا هاشم عبد الحي.

بدا الاسم مألوفًا له حاول التذكر، فقطع "هاشم" حيرته وقال:

- كنت معك في الإعدادية.

تذكره قائلًا: صديق محمد إسماعيل في الدكة؟

ابتسم هاشم قائلًا: هو.

عانقه "همام" وهو يقول: كيف حالك وأين أنت الآن؟

جلس الاثنان وقال "همام": ما زلت تعيش في مصر؟

- أجل.. كيف حالك أنت؟

بيأسٍ قال:

- كما ترى أصبحت أجلس في الدار طوال الوقت.. كبرنا يا "هاشم" انتهى العمر ونعيش حلاوة روح لا أكثر.

- إنها الحياة يا "همام".

- لقد أهلكتنا.

صمت "هاشم" يريد أن يفتح الموضوع ولم يعرف كيف، ربما "همام" نسي هذه الواقعة تمامًا، ربما لا يريد أن يتذكر تلك الأيام! وما الفائدة الآن من قول حقيقة غابت أكثر من خمسين عامًا، أصبحت كجرسٍ في بيتِ أصم لا فائدة منها فلن تغير شيئًا ولن يعود الزمان للخلف، ولكن "هاشم" أراد أن يتخفف من بعض آثامه، فقال بعد طول صمت:

- أنا مدين لك يا "همام" باعتذارٍ تأخر كثيرًا.. كثيرًا جدًا، ولكن أرجو أن تسامحني.

عقد "همام" حاجبيه قائلًا: على ماذا يا أخي؟

- أتتذكر حينما أرسل محمود البراوي جوابًا غراميًا لإحدى الفتيات.. وقال إنك من أرسلته؟

أطبق "همام" على شفتيه وازدرد ريقه، حتى الآن لم ينس هذه الواقعة ولا غيرها مما كان زملاؤه يفعلونه به، تناسى ولكنه لم ينس ولا يحب أن يتذكر أيًا من تلك المواقف التي كانت تهدر كرامته ولم يستطع الدفاع عن نفسه، فيما بعد دربته الحياة والمواقف على أخذ حقه وصنعت منه إنسانًا أقوى وأصلب دون أن يتخلى عن

طيبته ولكن رذيلة الزمن أن ما يمضي لن يعود أبدًا، كلما تذكر موقفًا سخيفًا فعله به زملاؤه تمنى لو يعود الزمان وينتقم لنفسه ويلقنهم دروسًا لن ينسوها كما فعلوا معه، ولكن آلة الزمن في الأفلام والروايات فقط، أومأ برأسه وهو يشعر بالعار من نفسه وقال:

- أجل أتذكر.

- في هذا اليوم رأيت "محمود" وهو يضع الجواب، كنت أعلم أنك بريء، ولكني لم أتكلم، كنت ضعيفًا وأخرق. أرجو أن تسامحني.

- وما ذنبك؟ كنت أنا الضعيف.

- بل أنا الأضعف لأني رأيت الحقيقة ولم أفصح عنها.

- يكفي أنك كنت طيبًا معي ولم تتعمد إيذائي.

- إذن سامحتني؟

- بالتأكيد.. ما ذكّرك بهذا الموقف البعيد الآن؟

- كنت هنا عند ابنتي وتذكرتك وتذكرت هذا الموقف فأردت الاعتذار منك.

- لو كل الناس مثلك يا "هاشم" لكانت الحياة أفضل.

ابتسم "هاشم" وهو يربت على فخذ "همام" يشكره، رغم أنه لم يصدقه أيضًا، بوجهة نظره لتكون الحياة أفضل، فهي بحاجة إلى متسامحين ومسالمين مثل "همام" وإلى صادقين أقوياء.

*****

بعدما خرج الاثنان من عند "همام" اتجها إلى بيت "وردة" مرة أخرى ليودعها "هاشم" هي وأولادها، ثم عاد الاثنان للقاهرة.. عاد

"هاشم" متخففًا من ذنب "نادية" وحرًا من ذنب "همام"، سر برؤية ابنته وأحفاده الذين ودعهم بعناق طويل جعل "وردة" ترتاب وتخاف، ليس طول العناق وحده ما أخافها، ولكن صحة أبيها بدت ضعيفة، فقد رأته هزيلا يستعين بعكاز.. أخبرته أن "نور" سوف تأخذ الإجازة بعد أسبوع وستذهب له لتخدمه.

وعاد "علي" ليس كما ذهب، عاد و"نور" في قلبه، نور أضاء المصباح المعطوب في قلبه، في طريق العودة لم يقرأ العبارات وأحرف السيارات، بل غرق في التفكير في "نور"، في طيبتها معه وعينيها البنيتين وشعرها الطويل الناعم، كانت جميلة، عندما فكر بها علم أن هناك مشاعر جميلة لم يختبرها بعد غير الخوف والرهبة والألم المتواصل..

فور دخولهما الشقة قال "علي": اشتقت لكلابي.. سأذهب لهم.

رد "هاشم": وأنا مجهد كثيرًا من السفر سأنام.

- حسنًا.

قال "علي" ذلك وتحسس الورقة المدون بها رقم هاتف "وردة" في جيبه يطمئن أنها به، منذ ذلك اليوم الذي ظن أن "هاشم" مات بالداخل، وهو يأخذ الورقة معه في كل مكان ويحرص عليها كأنها بطاقة هويته.

نزل "علي" وبقي "هاشم" يتألم آلامًا شديدة.. فقد قدرته على إخفائها وفقد السيطرة على تحملها، ارتاح لنزول "علي" وصار يصيح ويئن وجعًا.. بحث عن مسكن للآلام في أدراج الخزانة والكومود، لم يترك درجًا في البيت لم يفتحه حتى وجد مسكن "كيتوبريك" ولكنه

لم يفعل له شيئًا كان يريد مسكنًا أقوى، ارتمى على سريره حاول أن ينام ولم يستطع من قوة الألم..

أراد أن يشرب، ولكن الألم أعجزه عن النهوض، فظل طريحًا وأطلق العنان لدموعه، لم يبك الألم وحده، ولكنه بكى ضعفه وعجزه، بكى روعة الحياة التي أدركها متأخرًا.

الاستمتاع بالحياة لا يقدره الشباب لأنهم منغمسون فيه، أما حينما يشيب الرأس وتسقط الأسنان ويمتلئ الجسد بالأمراض يصبح كل شيء له معنى وقيمة، تصبح الحياة لها مذاق مختلف.

*****

التف أربعة كلاب حول "علي" في وئام وراحت تتمسح به وتلعقه في حب وهو مبتسم وسعيد، حتى جلس وهو يقول بلسان ثقيل كعادته:

- اشتقتم لي أعرف.. وأنا أيضًا.

جلست جواره تلهث، فمسك أحدها، كان هناك جرح صغير جوار أذنه وقال:

- كيف حالك يا طاطا.. ما هذا الجُرح؟ أخبرتك كثيرًا ألا تتعارك.. كن طيبا.

صمت قليلاً وأكمل: مثل "نور".

وزع نظره عليها جميعا وقال:

- تريدون أن تعرفوا من هي؟ أليس كذلك؟

أسند رأسه على الحائط وقال:

- هي فتاة جميلة كانت طيبة معي.

لم يكن "علي" يدري ما هو الحب، كانت كلمة يسمعها ولا يعرف معناها، حتى بعدما حكى له "هاشم" قصته مع "نادية"، ولكنه الآن عرف الحب وعرف معناه بعدما رأى "نور" واستحوذت على تفكيره، كان شعورًا جديدًا يكتشفه لأول مرة.. جعله ينسى كل آلامه ويتصالح مع الحياة شعر أنه ما عاد يكرهها.

*****

في المساء حضّر "علي" الطعام، ولكن "هاشم" لم تكن له شهية.. لم يُرد "علي" أن يأكل و"هاشم" لا يستطيع، فتحامل "هاشم" على نفسه ليأكل "علي"، وأكل نصف بيضة بصعوبة وشرب كوبًا من العصير، فقال "علي":

- عندما كنت في الدار (يقصد دار رعاية الأيتام) كانت هناك فتاة لا تأكل.. فقالت إحداهن سوف نجلب لها فاتح شهية لتأكل.. أظن أنك تحتاج لذلك.

لفتت انتباه "هاشم" كلمة الدار، لم يعرف ماضي "علي" وما أوصله للعيش في الشارع، شعر بالفضول تجاه حياته الماضية، أراد أن يعرف عنه قبل أن يلتقي به كيف كان يعيش، شغله إصبع قدمه المفقود، شعر أن خلفه حكاية تروى فقال له:

- ما قصتك يا "علي".. حتى الآن لا أعرف؟

لم يكن "علي" يعرف كيف يبدأ ومن أين، حياته القصيرة الماضية كانت عبارة عن سلسلة متواصلة من الآلام، أخذ يفكر...

****

عندما وعى على الدنيا وجد نفسه يعيش في بيت "الكَحول" كان رجلا قاسيًا لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا، عنده عصبة من الأطفال، جمع بعضهم باختطافهم من ذويهم، والبعض الآخر من الشارع الذين لم يُعرف لهم أهل. كان من عصابات المتسولين تجمعه رابطة مع آخرين من المَعلمين في شبكة كبيرة تضم محافظتي القاهرة والجيزة، واضعين لأنفسهم دستورًا وقواعد وقوانين.

كلٌ له منطقته التي يوزع فيها أطفاله، ليجلبوا لهم المال نهاية كل يوم، لا يتعدى طفل على منطقة آخر، كل في منطقته وحسب..

نشأ "علي" في هذه البيئة وسط الصبية والصبايا المنفصلين عن الواقع، ولكنه كان منفصلًا عنهم أيضًا، لا يحب أن يمد يده رغم أنه لا يعلم أن ذلك خطأ.

يبيع المناديل فقط، كان أفشل أقرانه الذين يعودون في نهاية اليوم بالمال الوفير ويعود هو بثمن المناديل لا أكثر، لذا كان بالنسبة للكحول طفلًا لا فائدة منه، بل يكلفه مأكلًا ومشربًا.

حاول كثيرًا أن يجعل منه فتى طائعا له وفشل.

كانت طريقة الكحول في تأديب أطفاله هو قطع إصبع من أياديهم أو أقدامهم، لا أكثر من ذلك، كان أصدقاؤه الآخرون يتعمدون تشويه الجسد، من يقطع ذراعًا ومن يقطع ساقًا كما يليق بشحاذ يشفق عليه الناس فيعطونه، وبهذا العمل كان الكحول يظن نفسه رحيمًا ولا أحد يملك قلبًا رقيقًا مثله، ترى هل كل الجبابرة يعلمون أن قلوبهم قاسية؟ أم يظنون أنهم رحماء مثله؟ إن الإنسان

دائما عنده مبررات لأفعاله حتى الجبابرة عندهم مبررات لجرائمهم البشعة.

كان "علي" دائما العبرة للمتمردين، إذ كان الكحول كلما حاول تأديبه يسخر منه ومن ثقل لسانه ويضحك عليه الجميع، يرى الآخرون ذلك فيقدمون للكحول فروض الولاء والطاعة حتى لا تكون الحفلة عليهم مثله ويعودون بمبلغ أكبر من الأمس، وهذا كان النفع الوحيد لعلي عنده، أنه يحفز الآخرين على العمل، لذا يبقيه عنده رغم أنه يكلفه مأكلًا ومشربًا، وكان "علي" لا يعرف حياة أخرى غير تلك رغم كل ما بها من ألم، من ذا سيأويه إن استطاع الهرب! كما أنه لم يفكر في الهرب من الأساس..

لم يكن يتكلم إلا للضرورة، ولكنه سأل الكحول ذات مرة سؤالًا يلح عليه كثيرًا:

- كيف.. جئت إلى هنا؟ أين أبي وأمي؟

أجابه ساخرًا:

- لقد وجدتك جوار مقلب قمامة.. لذا دائمًا رائحتك كريهة.

ظل هذا الجواب يؤرق "علي" ويقض مضجعه، لما تخلى عنه أبواه؟ يعلم أنه لن يعرف الإجابة أبدًا، ولكنه لا يكف عن سؤال نفسه هذا السؤال.

ظل في هذا البيت الذي كان عبارة عن حجرة كبيرة ذات سقف عالٍ كالمرآب حتى سن الثالثة عشرة، عندما قطع له الكحول أحد أصابعه فرق له أحد أصدقائه، كان يكبره بخمسة أعوام، قبل النوم نظر نحوه وهو يقول:

- متى تفعل ما يأمرك به؟

لم يرد "علي" فهو يحاول كثيرًا أن يكون مثلما يريده الكحول، ولكنه يفشل.. إن التعامل مع الناس يرهبه، أمس مد يده لأحدهم دون أن يتكلم أعطاه خمسة جنيهات كانت يده ترتجف وهو يحاول أخذها فتركها له وركض، قال "علي":

- لن تفهم شيئًا.

- لن تكون مثلنا يا "علي".

لم يعقب فأكمل الصبي: اهرب.

لم يرد "علي" مرة أخرى، فاستدرك الصبي:

- اهرب وسوف أساعدك.. سأقول إنك قفزت في مياه النيل.. واترك هذا المكان القبيح.

- وأين.. أذهب؟

- إلى أي مكان.. بالتأكيد سيكون أفضل من هنا.

في اليوم التالي خرجا معًا عازمين على إتمام الخطة، أخذه صديقه إلى مكان عند النيل قرب قصر المانسترلي في المنيل قال له:

- سأقول إنك قفزت من هنا.. والآن أذهب حيث تأخذك قدماك.

عانقه وأخرج من أحد جيوبه ثمرة برتقال ومن الجيب الآخر قطعة بسبوسة مغلفة بورقة بيضاء وثلاثة عشر جنيها أعطاها له وهو يقول:

- هذا كل ما معي.. تدبر بهم أمرك.

فرت من عين "علي" دمعة وهو يأخذهم، قال صديقه:

- وداعًا.

لم يرد "علي"، ظل واقفًا بيده الأشياء ونظره معلق بصديقه وهو يرحل حتى غاب عن ناظريه، لم يعرف إلى أين يذهب، ظل واجمًا، أراد أن يلحق بصديقه ويخبره أنه سيعود معه، ولكن خطرت له فكرة أكثر منطقية، أن يلقي بنفسه في النيل حقًا، نظر للناس من حوله فاستغرب كيف يستمرون في تلك الحياة، كيف يتكيفون مع هذا الكم من الألم، إن الحياة قاسية إلى حد لا معقول، عاد يسأل نفسه "لماذا تخلى عنه أبواه" لم يجد إجابة كالمعتاد فوضع ثمرة البرتقال وقطعة البسبوسة والمال جواره على الأرض وقفز في النيل ليتغلب على الألم.

*****

ولحسن حظه أو لنقل لسوء حظه أنقذه صياد، استفاق "علي" ووجد نفسه مدثرًا ببطانية ومحاطًا بالناس، انهالت عليه الأسئلة، شعر بالهلع فلم يقل أكثر من ثلاث جمل استطاع الصياد أن يفهمها "اسمي علي"، "أبي وأمي ألقياني جوار مقلب قمامة"، "كنت أعيش في بيت الكحول وقطع أصبعي".

فأخذه إلى أقرب قسم شرطة وهناك أعطوه اسمًا ثلاثيًا عشوائيًا "علي محمد السيد" وأرسلوه إلى أحد الملاجئ التي تأوي الأيتام وأودعوه هناك.

ظل هناك طفلًا منطويًا، حاولوا أن يجعلوه يتكيف مع من حوله بلا جدوى، أحد الموظفين عندما وجد لسانه ثقيلًا استدرجه وحاول التحرش به، لم يكن "علي" يعرف ماذا يحدث ولكنه كان يشعر أن ما يحدث خطأ، تمادى عندما وجده بهذا الضعف أراد أن يهتك عرضه ولكن "علي" ركض وهرب من الملجأ في هذا اليوم، وظل في الشارع من حينها، كانت نقطة فارقة في حياته، عرف معنى

الحرية والوحدة، وتعلم أشياء كثيرة، وجد عزاءه في خطب الجمعة، كان يذهب إلى المسجد كل جمعة ويستمع للخطبة بشغف، عرف الله وما يحبه ويرضاه، راقت له فكرة أن الله معه دائمًا وهو الذي غارق في الوحدة والآلام تملأ صدره، وأصبح صديقًا للكلاب والقطط وبعض من أولاد الشوارع، حتى وجد "هاشم" وأصبح إنسانًا، شعر بآدميته عندما عاش معه، حكى لـ"هاشم" كل ذلك بقلب دامٍ وعينين تأبيان أن تدمعا.

*****

ضم "هاشم" "علي" لصدره، كان يعرف كم يؤلمه أن يتخلى عنه أبواه، فقال بعد طول تفكير:

- هناك احتمال كبير أن يكون قد تم اختطافك من أمك وأنت صغير.

- حقًا؟

- ربما لا يكون اسمك "علي" من الأساس.

- كيف ذلك؟

- سوف نبحث عن أهلك الحقيقيين.. تريد أن تعثر عليهم؟

- أتمنى.

- إذن هذه هي المهمة الثانية.. أن نعثر على أهلك.

*****

"اليوم الثامن"

ترك "هاشم" "علي" في الصباح يتناول فطوره وأخبره أن وراءه مشوارًا عليه أن يذهب له وحده..

اتجه "هاشم" إلى سلامة أحد معارفه الشباب، يعرف أن له خبرة في الإنترنت ومواقع التواصل.. كان يعمل في سنترال، دخل عنده وبعد التحية وبضعة أسئلة عن الأحوال والصحة، قال "هاشم":

- أتذكُر حين تاهت حفيدة أم سعد وقلت لي إنك وضعت صورها على مجموعات وصفحات الفيسبوك حتى عثروا عليها؟

أومأ "سلامة" قائلاً: أجل.. هل تاه أحد؟

- ليس كذلك تمامًا.

وجد "سلامة" الموضوع قد يطول فجلب مقعدًا له وقال:

- استرح وأخبرني.

اختصر له "هاشم" قصة "علي" سريعًا، فقال "سلامة":

- حسنًا.. سآتي اليوم لأصوره وأضع صوره في المجموعات والصفحات، ولكن لا تبالغ في الأمل.. كل معلوماته ناقصة وبالتأكيد ملامحه تغيرت كثيرًا وبالتأكيد أيضًا "علي" ليس اسمه الحقيقي، ولكني سأفعل ما بوسعي.

- حسنًا.. هناك أمر آخر.

باهتمام قال "سلامة": ما هو؟

- منذ أيام علمت أنني مصاب بالسرطان.

بتأثر ودهشة قال "سلامة":

- لا إله إلا الله.. لا تقلق أصبح يُعالج الآن.

- لست قلقًا، ولكني أريد عقارًا مسكنًا قويًا للآلام كالترامادول، وهذا الدواء قليل ولا يكون إلا "جدولًا".. إذا كنت تعرف أحدًا يبيعه تكون صنعت لي معروفًا.

- أعرف.. سأجلبه لك اليوم.

- جزاك الله خيرًا.

قالها "هاشم" واستند على عكازه ونهض.

*****

في المساء جاء "سلامة" أعطى لهاشم شريطين من الترامادول وأخذ ثمنهما والتقط لعلي بضع صور كان يبدو بها حزينا وبأسًا، ولكنه رغم ذلك كان وسيمًا خمري البشرة شعره ليس قصيرًا، به موجة وعيناه سوداوان وأنفه مستقيم، وجّه "سلامة" حديثه لـ"هاشم" وقال:

- سأنشرها، وإذا جد جديد سوف أخبرك.

وغادر بعدما شكره "هاشم"، فقال "علي" بعد طول تفكير:

- ماذا.. لو كانا قد.. رمانيّ جوار مقلب قمامة.. حقًا.

- دعنا نحسن الظن.

غير "هاشم" دفة الحديث وقال: الأسبوع القادم سوف تأتي "نور".

خفق قلب "علي"، بينما أكمل "هاشم":

- أخبرتني أمها أنها ستأخذ الإجازة وتأتي لخدمتي.

لم تسع "علي" الدنيا من السعادة، شعر أنه من فرط الخفة سينبت له جناحان ويطير، ولكن "هاشم" استدرك:

- أنا في مأزق الآن.

عقد "علي" حاجبيه قائلا: لمَ؟

- "وردة" إذا عرفت أنك تعيش معي فلن توافق على مجيئها.. فقد أخبرتهم أنك أحد جيراني، ولا أريد أن أغضبها.

ازدرد "علي" ريقه وتعثر لسانه وهو يقول: تريدني.. أن.. أغادر؟

ضحك "هاشم" وقال مداعبا:

- هل تراني نذلا لهذا الحد؟ قد تكون قصتي مع "نادية" ما أوحى لك بذلك.

لم يرد "علي" فأكمل "هاشم":

- ستتعاون معي فقط يوم مجيئها.. ستذهب إلى كلابك أو أي مكان لليوم التالي حتى يغادر أبوها.. حسنًا؟

ابتسم "علي" وهو يقول بحماس شديد دون تلعثم:

- حسنًا.

- أريدك أن تعرف أن ذلك سيشق عليَّ، ولكني مضطر.

- لا عليك.

سعادة "علي" بقدوم "نور" طغت على كل شيء، لم يفكر في هذا اليوم الذي سيقضيه في الشارع، لم يشغله، كل ما فكر فيه أنه سيرى "نور" مرة أخرى.

*****

"اليوم التاسع"

آثار العقار الجانبية أصابت "هاشم" بالصداع والنعاس، نام مرة أخرى بعدما استيقظ، وأخبر "علي" ألا يوقظه لأنه يشعر بالتعب، نام كثيرًا في هذا اليوم، لتزجية الوقت قرر "علي" أن يكتب خطابًا لـ"نور".

فتح دفتره وكتب بخط طفولي متعرج وبأخطاء إملائية كثيرة:

"كيف حالك يا نور..

بالأمس قال جدي "هاشم" إنك سوف تأتين الأسبوع القادم

لا تتصورين مدى سعادتي عندما سمعت ذلك.. كدتُ أن أطير فرحًا، منذ أمس وأنا لا أفعل شيئا سوى الانتظار، أعتقد أن الانتظار يزيد الوقت.. لذا فإن الأسبوع كثير جدا.. لا، إن خمسة أيام كثيرة جدا، فقد مر يومان منذ جئنا القاهرة، على كلٍ سأدعو الله أن تمر سريعا.

اسمك نور وأنتِ نور يضيء كل شيء مثل الشمس، أنت الوحيدة التي لم تضحك أو تستاء من طريقة حديثي.. وجدي "هاشم" بالطبع.

إلى اللقاء بعد خمسة أيام"

فرغ من الكتابة ونزع الورقة ودسها في جيبه.

*****

استيقظ "هاشم" مساء، جلس على طرف السرير ووضع قدميه على الأرض واستند بيديه جواره على السرير، وأطرق رأسه للأسفل، استمر في هذا الوضع البائس أكثر من نصف ساعة، أخذه التفكير السوداوي المعتاد إلى يوم موته، هل سيكون اليوم أو متى؟

على أي حال سوف يكون، وبما سيشعر؟ هل سيكون الموت مؤلمًا أم لن يشعر به؟ سيخفف الترامادول ألم الموت؟!

إن صحته تدهورت كثيرًا في اليومين الماضيين.

وماذا ستفعل "وردة" وأحفاده.. و"علي"! ماذا سيفعل "علي" بعد موته.. إن "علي" سيىء الحظ عندما وجد إنسانًا يحبه ويحنو عليه وجده يحتضر.

تمنى "هاشم" أن يجد "علي" أهله لكي يسلو بهم ويتجاوز فقده سريعا، ولكنه كان يعرف أن الأمل في ملاقاتهم ضعيف.. إذا كان حقا قد اختطف منهم.

فكر في أن يكتب له الشقة.. ابتسم لتذكره هذا الشيء.

فتح دفترًا ليكتب وصيته وكتب فيها أن الشقة لـ"علي"، لقد كان هدية القدر له في أيامه الأخيرة..

أوجعه أنه اقترب من الموت بهذا الشكل، أصابته غصة ورعشة في أطرافه لم يستطع السيطرة عليها..

هل يستسلم للموت بهذه السهولة، لو أن الموت شخص يصارعه، لأوقفه بكل قوته.. ولكن أين قوته؟ لقد هزل وأصبح أضعف من ورقة.. كل يوم قوته تخذله أكثر..

لو أن هناك أملًا طفيفًا في نجاته لتشبث به، ولكنه سمع الحقيقة التي لن يغيرها شيء.

كلام الطبيب قضى على كل أمل كان يمكن أن يتمسك به، لذا اختار ألا يسبح عكس التيار ولا يجرب العلاج الذي سيعجل بموته، خرج للصالة وجد "علي" يدرب نفسه على القراءة من صفحة جريدة.. كان يتهجى الأحرف ثم ينطق الكلمة، فجلس على الأريكة يلتقط أنفاسه..

كان خروجه من الغرفة للصالة كمجهود عامل بناء.. نظر "علي" له وقال:

- كيف.. حالك؟

- بخير.

صمت قليلاً وسأله: هل تستطيع القراءة؟

أومأ "علي" قائلا:

- كل يوم أتحسن أكثر.. أتدرب.. الآن على الكتابة أيضًا..

كان سيقول إنه كتب خطابا لـ"نور" ولكنه أمسك لسانه، استدرك:

- أحضر.. الطعام؟ كنت أنتظرك.

- أنا ليس لدي شهية.. كما أن الطعام يتعبني كثيرا.. كُل أنت.

- أريدك أن.. تأكل معي.

- لا أستطيع.

- ولكن لا.. بد أن تأكل.

كان "هاشم" مرتبكا ومتوترا وهذا الإلحاح ضايقه، فقال بعصبية:

- ما لك ولي.. تريد أن تأكل كل ولا تنتظرني.

أجفل "علي"، تلاشت ملامحه البريئة وانعقد حاجباه، لم يفهم ماذا حدث لينفعل هكذا، ظل ناظرًا له باستغراب، فقال "هاشم":

- لِمَ تنظر لي هكذا.. حضر الطعام وكل.

انسكبت العبرات من عيني "علي" وهو ما زال ناظرًا له بتعجب، لأول مرة يقسو "هاشم" عليه هكذا.. شعر أنه يريد أن يجعله يغادر لأجل "نور"، لم يعلم أنه كان منذ قليل يكتب له الشقة ويفكر في حاله، لم يفهم "علي" صراعات "هاشم" النفسية، نسي أنه مع شخص يواجه الموت، لم يعرف كم قاسى هذا الشعور ولا يحتمل، لم يفهم "علي" شيئًا.

نهض وغادر، نادى عليه هاشم "علي.. انتظر لم أقصد" ولكنه لم يستجب، كل ما فكر فيه أنه ما عاد يريده.

ذهب "علي" لمكانه وهو أشد أهل الأرض حزنًا وغضبًا، لم يجد أيًّا من كلابه.. جلس يستوعب ما حدث، رآه أحد الكلاب من بعيد فركض نحوه وظل يلعقه ويتمسح به فعانقه "علي" وظل يبكي، انفجر في البكاء، أخذ الكلب ينبح بصوت منخفض كأنه يخبره أن يكف عن البكاء، ولكن "علي" كان يزداد أكثر.

أخرج الخطاب الذي كتبه لـ"نور" من جيبه، نظر فيه وظلت دموعه تنساب وهو يمسحها بظهر يديه، ثم مزقه ونثر الورق في وجه الريح، كان في هذا الوقت يشعر أنه فقد "هاشم" و"نور" للأبد.

*****

"اليوم العاشر"

ذهب "هاشم" إلى المكان الذي قابل "علي" فيه أول مرة، قرب مستشفى المبرة في الملك الصالح أخذ سيارة أجرة واتجه إلى هناك يبحث عنه، سأل أصحاب المحلات وصف لهم هيئته، ولكن لم يعرفه أحد، فعاد إلى بيته وهو يلوم نفسه، لقد قسا عليه بعصبيته ولكنه لم يكن يقصد، هو نفسه استغرب رد فعله، لام "علي" أيضًا كيف يتركه منذ أول خلاف يحدث بينهما؟ كان يجب أن يقدر ما يمر به، ولكنه في النهاية عذر "علي" فحياته كانت قاسية بما يكفي لتجعله هشًا وضعيفًا لهذا الحد، بالتأكيد تقديره لذاته منخفض وذلك يصور له أنه ثقيل على الجميع ولا أحد يريده.. أوجعه أن يظن "علي" فيه ذلك، لقد أحبه كثيرًا كأنه ابنه وكتب له الشقة وهو سعيد بذلك.

*****

كان "علي" جالسًا جوار صديقه الذي كان مرتديًا ثيابا بالية على الرصيف يتناولان شطائر من الفول، قال له صديقه وهو يمضغ ما في فمه:

- عُدت للفول.. كنت هناك تأكل أحلى طعام.

- هل أخبرتك.. أنه.. يبحث عن أهلي؟

ضحك صديقه وهو يقول بسخرية:

- هل تظن حقا أن لك أهلًا؟ نحن أولاد حرام.. بالتأكيد أمك كانت بغيًا ورمتك.

صمت "علي" حزينًا فأكمل صديقه:

- كل شيء في الحياة لفظنا عدا الشارع لذا أحبه.

- لأنك لم.. تجرب شعور البيت.. والأمان الذي به.. إنه نعمة.. كبيرة.

سكت يفكر وأكمل بلسان ثقيل:

- أشعر أنه يحتاجني.. لقد ساءت.. صحته ويحتاج إلى.. مساعدتي في.. كثيرٍ من الشؤون..

سأله:

- هل هكذا أنا نذل؟

لم يبدِ صديقه أي اهتمام لسؤاله، كان منشغلا بالشطيرة التي كان بها شيء يزيله،

لم يشعر "علي" بالاهتمام من أحد طوال حياته إلا من اثنين؛ "هاشم" و"نور"، فضلا عن كلابه، فهما الوحيدان اللذان جعلاه يشعر أنه إنسان وله قيمة، لم يفكر كثيرًا ونهض، تعلق في إحدى الحافلات من الخلف ليعود لـ"هاشم".

*****

طرق "علي" الباب كثيرًا، ونادى أكثر ولكن لم يفتح أحد، كرر الاثنين اليوم الذي تفرقا فيه من قبل مجددًا، توتر "علي" وشعر بالخوف الشديد أن يكون قد حدث لـ"هاشم" مكروه، لام نفسه.. دبدب في الأرض بعصبية وركل الباب بقدمه، يفرغ غضبه من نفسه، نزل يسأل عنه في الشارع، هل رآه أحد اليوم، قالت له بائعة الخضرة "إنه خرج منذ ساعة" هدأت ملامحه وزال التوتر وصعد

مرة أخرى وجلس على الدرج أمام الباب حتى شعر بمجيء "هاشم"، سمع نقرات عكازه وصوت تنفسه فنهض واتجه نحوه ليساعده على الصعود، ابتسم "هاشم" لرؤيته رغم تعبه وقال وهو ينهج:

- كنت أعلم أنك ستعود، ولكن ليس بهذه السرعة.

أخذ "علي" بيده وهو يقول:

- لم أستطع.. الاستغناء.. عنك.

- عوّد نفسك أن تستطيع.. الفراق حتمي.

تجاهل "علي" ذلك وقال:

- أين كنت؟

- كنت أبحث عنك.

- آسف.

- يجب أن أعتذر أنا لك.. ما فعلته بالأمس كان وقحًا.

قال "علي" مبتسمًا:

- لم يحدث.. شيء.

كانا قد وصلا أمام الشقة، وأخرج "هاشم" مفتاح الباب.

*****

بعدما دخلا الشقة جاء لهما "سلامة"، أخبرهما أن اثنين تواصلا معه كانا قد فقدا ذويهما صغارًا، هناك من تريد أن تراه لأنه يشبه ابنها الضائع، وهناك من يريد أن يراه لعله يكون ابنه وسيعرف عندما يراه هو أم لا.

رحب "هاشم" بمجيئهما ولكن "علي" خشي لقاءهما، لم يراوده احتمال 1% أن ربما يكون أحدهما من أهله حقًا، ولكنه كان يريد أن يظل واهمًا أنه ضاع من أهله كما أخبره "هاشم" لأنه يعرف أن القادمين ليسوا أهله، وهذا سيثبت له أن أهله لم يلقوا له بالاً، كما أنه كلما اعتاد على وضع يتغير، سئم كل ذلك، على مدار عمره الصغير لم يشعر بالاستقرار، تنقل من حال لحال، كان يريد أن يجدهم ولكن عندما أصبح على وشك ملاقاتهم شعر بالخوف الشديد، خاف أن يفقد الأمان والحياة التي وجدها بملاقاة "هاشم"، خاف أن يفقد "نور" أيضًا ولكنه لم يبد الاعتراض، أخذ "سلامة" قبل أن يغادر موعدين اليوم وغدًا، الأول سيأتي السادسة مساء وستأتي المرأة في الغد لأنها من محافظة أخرى، قال "هاشم" بتفاؤل فور مغادرة سلامة:

- أبشر.

لم يرد "علي"، كان مستغرقًا في التفكير، فقال "هاشم":

- أراك غير متحمس!

- ليس.. لي أهل أنا.. أعرف ذلك.

- أخبرتك من قبل أن نحسن الظن.

*****

السادسة مساء جاء الرجل لرؤية "علي"، جلس معه "سلامة" و"هاشم" الذي قال:

- منذ متى فقدت ابنك؟

- منذ اثني عشر عامًا، كان مع أمه في السوق، كانت تبتاع شيئًا وتدفع المال نظرت جوارها فلم تجد "كريم".. أكمل مبتسمًا:

- كان اسمه كريم.

عاد لعبوس ملامحه:

- في هذا الوقت كان عنده ثلاثة أعوام.. بحثنا عنه في كل مكان.. الأقسام والمستشفيات وناديا عليه في مكبرات الصوت بالمساجد، ولكن لم نجد له أثرًا.

تابع حزينًا:

- منذ ذلك الحين وأمه تبدلت.. كانت امرأة مرحة وتحب الضحك، ولكن منذ فقدت كريم وهي في حالة يرثى لها.. لو كان مات لكانت تابعت حياتها بالتأكيد، ولكن الأمل في ملاقاته أوقف حياتنا، ما زلنا نتمسك بأي شيء قد يدلنا عليه، ولكن عبثًا نحاول.

قال "سلامة":

- وأين هي؟

- كانت تريد أن تأتي معي، ولكني رفضت رفضًا قاطعًا، إذا لم يكن كريم وهذا الاحتمال الأكبر سيكون شاقًا عليها.

شرد "هاشم" في كلمة الأمل، في حالته كان سيحييه وفي حالة هذا الرجل وزوجته فإنه يميتهما،

مفارقة عجيبة، إن كل شيء في الحياة له جانب سيء حتى الأمل.. أحيانًا يقتل.

في هذا الوقت خرج "علي" الذي كان خجولا وخائفًا مطرق الرأس، رآه الرجل بنظرة سريعة متفحصة عرف بها أنه ليس ابنه، إن

قلب الآباء لا يخطئ كالأمهات، ولكنه دعاه للجلوس جانبه، جلس "علي" جانبه وهو يشعر بالرهبة حتى أن أطرافه كان بها رعشة، لاحظ الرجل ذلك فقال:

- أنت بخير؟

أومأ "علي" إيجابًا، فوزع الرجل نظره على الجميع وقال يأسًا:

- كما قلت لكم.. عبثا أحاول.

- لا تيأس.

قالها "هاشم" وهو يشير لـ"علي" بالدخول.. يعرف أنه يرهب الأغراب فساعده.. كان يخرجه دائمًا من المآزق، كأنه ملاكه الحارس.

*****

"اليوم الحادي عشر"

التاسعة صباحًا.. كان "علي" و"هاشم" يتناولان الإفطار، انتهى "علي" من رغيف خبز وكان "هاشم" ما زال يمضغ في اللقمة الثالثة، كان يجاهد ليأكل، نظر لـ"علي" بغبطة؛ إنه يأكل بسهولة انزلاق الماء في النهر، وبعد أن يأكل لا يشعر بشيء، إنها نعمة عظيمة لم يكن يدري بها "علي"، لم تستمر الغبطة طويلا وشعر "هاشم" بألم شديد في معدته فنهض واتجه إلى الحمام ليفرغ ما أكله، ولكنه لم يستطع الانتظار حتى الحمام الذي يبعد عنه بأربعة أمتار فقط، فتقيأ في الطريق، نهض "علي" راكضًا نحوه وقال متلعثمًا:

- أكمل.. طريقك للحمام وأنا.. سأجلب.. القماش والصابون.. لأنظفه.

نظف "علي" المكان وعاد "هاشم" وجلس على الأريكة وهو يلهث قائلاً:

- أتعبتك كثيرا يا "علي".. أعرف كم هو أمر شاق ومقرف.

جلس "علي" جواره وهو يقول: لم أتعب.. صرت أفضل؟

بنبرة استسلام قال "هاشم":

- الحمدلله.. أريد وعاء للتقيؤ يكون دائمًا بالجوار حتى لا أشق عليك كثيرًا.

- حسنًا.

سكت الاثنان طويلاً حتى قال "هاشم":

- كنت تقول إنك تتدرب على الكتابة أيضًا.. أرني ما كتبت.

تلجلج "علي" صمت قليلاً ثم حاول التحدث، فلم تسعفه الكلمات لم يعرف الكذب فقال:

- اليوم أكتب.. وأريك.

- بعد قليل سوف تأتي السيدة لتراك.

شعر "علي" بالضيق والتوتر، فقال:

- أنا أعرف.. أنها.. ليست أمي.

- لا أحد يعلم الغيب.

لم يملك "علي" سوى أن يخضع للأمر، لم تكن عنده القوة ليقول لا أريد رؤيتها فصمت كما يصمت دائمًا.

*****

جاءت السيدة متلهفة لرؤية "علي"، وهي محملة بالكثير من الأمل والرجاء، صعد معها "سلامة"، فتح "هاشم" الباب وقبل أن تدخل السيدة وقفت أمام الباب وهي تضم كفيها لفمها وأنفها وتتمتم بأدعية وأذكار، دخلت، كان "علي" واقفًا أمام الأريكة، رأته أقبلت عليه وقالت:

- أنت "علي"؟

أومأ صامتًا، فقالت:

- أعتقد أنه في سنك الآن.. إن شاء الله تكون أنت هو.

لم يفهم "علي" ماذا عليه أن يفعل، فنظرت لـ"هاشم" وقالت بلهجة راجية:

- هناك وحمة فقط أريد أن أفحصها.

- أين تلك الوحمة؟

- في منتصف ظهره.

سار "هاشم" ببطء حتى وقف أمام "علي" وقال:

- سوف ترى السيدة ظهرك لتتأكد من أنك ابنها أم لا.. لم يحدث شيء.

ارتبك "علي" بشدة، فقالت السيدة وهي تضع يدها على قلبها ترجوه:

- ثانية واحدة فقط.

لم تدع له مجالا للاعتراض ورفعت كنزته التي يرتديها، في أقل من الثانية جذب "علي" كنزته منها، ولكنها في هذه اللحظة لم تر العلامة، هذا ما كانت تتوقعه، منذ فقدت ابنها والأمل يعبث بها، تصورت أبشع التصورات وأسوأ السيناريوهات التي قد تحدث له ولكن الأمل كان يفوز بالنهاية مع كل خيط جديد يلوح في الأفق.

صب "علي" جام غضبه على "سلامة"، قال غاضبا وهو يضغط على الأحرف:

- ليس لي أهل.. لا تجلب لي أحدًا.. مرة أخرى.

وتركهم وركض معرجًا لغرفته، اعتذر "هاشم" من السيدة التي كانت تبكي ودعاها للجلوس، ولكنها أخبرته أنها ستغادر، وقال لـ"سلامة" أن يحذف المنشورات نزولا على رغبة "علي"، وافق "سلامة" وأخذ السيدة وغادر، ودخل "هاشم" عند "علي".. وجده محوطًا ساقيه بذراعيه وملقيًا برأسه عليهما ويبكي، هو يعرف أن

"علي" ليس طبيعيا فهو يخشى الناس والتلامس، وما حدث من السيدة كان قاسيًا ومهينًا بالنسبة له، جلس جواره وقال:

- لقد بلغت "سلامة" أن يحذف المنشورات.. لن يجلب لك أحدًا مرة أخرى.

ازداد بكاء "علي" فتابع "هاشم":

- كنت أريد أن أساعدك، ولكني فشلت..

استدرك بغصة كبيرة في حلقه:

- كنت أريد أن تجد أهلك ولا تبقى وحيدًا لأنني اقتربت كثيرا من الموت.

أكمل بصوت باكٍ:

- أيام فقط تفصلني عنه.. ولا أدري كيف أواجهه، ما عدت أستطيع فعل شيء، الألم يفتك بي والطعام والشراب لا يبقيان في جسدي دقيقة.. أنا أنتهي.

نظر له "علي" مشفقا، فواصل "هاشم":

- أشعر أنني ثلج تحت الشمس، أو أنني في غرفة مغلقة معصوب العينين ومعي عدو يسدد لي الضربات من كل صوب ولا أستطيع تفاديها لأنني لا أراه..

عانقه "علي" وظل الاثنان يبكيان معًا.. عانقه دون أن يهاب ملامسته، كان فعلا لا إراديا يليق بالموقف.

*****

"اليوم الثاني عشر"

كانت ليلة أمس مرهقة نفسيًا على الاثنين "علي" و"هاشم"، فتأخرا في الاستيقاظ، فتح "هاشم" عينه، أخذ الهاتف من تحت وسادته ونظر في ساعته وجدها الواحدة ظهرًا، فتحامل على نفسه ونهض، أخذ عكازه وسار ببطء لغرفة "علي" وجده ما زال نائما فأيقظه وقال له إنه يريد أن يذهب لمسجد الحسين، لم يعد هناك متسع من الوقت في حياته لكي يؤجل شيئًا، فرك "علي" عينيه وهو يقول:

- أين هذا المسجد؟

- في الأزهر، ولكن...

- ماذا؟

- المكان مزدحم.

- لا أشعر.. بالرهبة في المساجد.

*****

دخل "هاشم" باحة المسجد مستندًا بيمينه على العكاز وبشماله على يد "علي" الذي كان ينظر حوله يرى بائعي السبح والمسك والطيب، والذين يوزعون الفول النابت والبلح الرطب، والشحاذين وأطفالهم المهملين الذين ذكروه بنفسه على نحو ما.. حتى دخلا المسجد، أجلس "علي" "هاشم" على أحد المقاعد، وصلى الاثنان صلاة الظهر، وقال "هاشم" وهو يشير نحو المقام:

- هيا يا "علي" ندخل عند المقام.

أخذ بيده وسار الاثنان نحوه، كانت زغاريد النساء تملأ المكان والأغاني في حب الحسين وآل البيت لم تنقطع كأنه عرس، ورائحة البخور ترطم الأنف، بعدما شقا الزحام ترك "هاشم" يد "علي" وتعلق في الحديد المحيط بالمقام.

أخذ يدعو ويتمتم، لم يستطع السيطرة على قنواته الدمعية فراح يبكي، لم يكن "هاشم" وحده من يبكي، ولكن وجد "علي" الكثير معلقين بالمقام، من يبكي ومن يدعو، سمع الكثير يقول "مدد يا سيدنا الحسين مدد" ومن يمسح المقام ثم يمسح على ملابسه.

لم يفهم شيئا.. لاحت في ذهنه أسئلة كثيرة؛ لِمَ يبكون؟ وما معنى مدد؟ وما علاقة سيدنا الحسين بالدعاء لله؟ ولماذا يتمسحون بالمقام، كانت أجواء جديدة على "علي" كليا، ورغم الازدحام لم يتوتر، بل شعر بالراحة النفسية، لم يفهم شيئًا، ولكن تحت تأثير الجماعة على الفرد وجد نفسه يمسك الحديد مثلهم، شعر أنه مكان قريب من الله فلا بد أن يدعوه بما يجيش في خاطره، وجد نفسه يفعل مثلهم تماما، يمسح المقام ثم يمسح على صدره، وأخذ يدعو ويقول "يارب تمضي الأيام سريعا لتأتي "نور".. يومين فقط.. يارب يمضوا وكأنهم ساعتين".

نظر نحو "هاشم" وجده ما زال يبكي ويقذف بالمال داخل المقام، فدعا الله له وهو يقول "يارب اشفيه.. يارب يأكل ولا يتألم ولا يتقيأ.. إنه طيب وأنا أحبه، يارب اشفيه إنه يحبني"

انسابت دموعه وهو يقول "يارب اشفيه لا أعرف ماذا سأفعل إن مات.. أين أذهب هل سأعود للشارع مرة أخرى؟ يارب اشفيه أنا أعلم أنك تسمعني".

نظر حوله وهو يواصل "الناس هنا يدعونك وكأنك داخل المقام.. إن كنت هنا حقا وتسمعني اشفيه واجعله لا يتألم"

*****

بعدما خرجا من المسجد قال "هاشم" لـ"علي" إنه سيأخذه لمقهى الفيشاوي، وبينما هما يسيران في باحة المسجد وما حولها ظل "هاشم" يوزع من ماله على كل شحاذ أو مسكين يقابله وهو مبتسم، إن في العطاء لذة تفوق كل اللذات لا يعرفها إلا الكرماء، جاءهما بائع أقراط وسلاسل.. أعطاه "هاشم" مبلغًا من المال دون أن يأخذ شيئًا فقال "علي" بشيء من التردد:

- انتظر.

وقف البائع فواصل "علي" وهو يمسك أحد السلاسل:

- أيمكن أن.. آأخذ هذه؟

قال البائع: يمكن، ولكنها للفتيات.

أومأ "علي" قائلاً وهو يضغط على الأحرف: أعرف.

أخذها وأكمل سيره هو و"هاشم" الذي قال له:

- لمن هذه؟

أعطاها له وهو يقول:

- لـ"نور".. أعطها لها، يومان وسوف تأتي.

أخذها "هاشم" وهو يقول:

- ذكرتني بـ"نور".. لقد ساءت صحتي كثيرا، لا أعرف كيف سأتصرف أمامها.. بالتأكيد سوف تخبر أمها.

- ما الجرم.. في.. ذلك؟

- أريد أن أموت في هدوء دون جلبة، لا أريد أن أشق على أحد.

- لن.. تموت.. سوف تشفى.

ضحك "هاشم" قائلاً:

- لو أن المسيح بيننا لصدقت.

- ماذا كان.. يفعل المسيح؟

- كان يشفي المرضى والعميان ويحيي الموتى بإذن الله.

- هل كان يشفي من بمثل تعثر لساني؟

- أجل.

- ليته كان.. بيننا.

*****

دخل الاثنان أعرق المقاهي في مصر، قهوة الفيشاوي في الزقاق الضيق، أخذا مقعدين بالداخل، فقال "هاشم" وهو يجول ببصره في المكان يستعيد ذكرياته:

- كنت وصديقي صلاح رحمه الله نأتي إلى هنا كثيرا.. كان درويشًا محبًا للحسين ولآل البيت.. منذ مات لم أطأ هذا المكان.

قال "علي":

- من الحسين؟ ولماذا يدعوه.. الناس كأنه الله.. لقد سمعت رجلًا يقول.. اشفي.. لي ابني يا.. حسين!

- الحسين هو ابن علي بن أبي طالب وأمه السيدة فاطمة ابنة الرسول.. لقد استشهد دفاعًا عن الحق وقتل قتلة بشعة في كربلاء بالعراق، ومنذ ذلك اليوم والناس متعاطفة معه وتحبه.

- هل العراق.. بعيدة عن مصر؟

- بالتأكيد

- إذن كيف.. يكون قبر الحسين.. هنا؟ هل جاءوا.. به في طائرة؟

ضحك "هاشم" قائلاً:

- إن الطائرات حديثة الصنع.. حين مات الحسين لم يكن هناك طائرات.

- إذن كيف يكون القبر هنا وهو قد قتل هناك؟

- رأس الحسين هنا وجسده هناك.

لا يعلم "هاشم" أن آخرين يقولون إن المقام فارغ ولا يوجد به شيء.. وكان الأمر كله خدعة لترويض المصريين المحبين للنبي وآل بيته، منذ قرون والناس يستخدمون الدين كدرع لحماية فسادهم وتيسير مصالحهم.. وهناك من يؤكد أن رأس الحسين بالفعل داخل المقام، كان "هاشم" من هؤلاء، ولكن لا أحد يعلم حقيقة الأمر، سأل "علي" مرة أخرى:

- ولمَ يتعلق.. الناس.. بالمقام ويبكون ويدعون.. الحسين كأنه.. الله؟

- هؤلاء بسطاء، حبهم لآل البيت ما يحملهم على ذلك.. يرون أنه حبيب الله وسوف يتوسط لهم عنده فتجاب دعواتهم.

- ولكنك.. فعلت مثلهم!

- أنا أحب آل البيت وأي رمز لهم.. ثم إني لم أقل اشفني يا حسين.. أنا لا أدعو إلا الله.. أدعوه أن يرحمني ويخفف عني سكرات الموت، فات أوان الشفاء.

شعر أنه محبط فغير دفة الحوار وأشار بيده حوله وهو يقول:

- انظر يا "علي" كم أن الحياة حلوة! دع عنك الخوف وكل ما يعكر صفوك.. عش الحياة واستمتع بها، إن الحياة فرصة يهبها لنا الله.

نظر "علي" حوله، كان المكان ساحرًا وبه شيء يبعث على الحياة كأنه قبس من الأبدية.. رأى كثيرًا من الجنسيات المختلفة العربية والغربية، ووجد رجلًا ممسكًا بعود ويغني لجمع من الأجانب، شرد "علي" مع غنائه في "نور" وعينيها وهو يستمع إليه وهو مبتسم وسعيد، كان يمر عليهما باعة من وقت لآخر، مر بائع كتب سأله "هاشم":

- هل معك كتب أطفال؟

أومأ أن لا، فقال "هاشم" لـ"علي":

- اختر لك كتابًا.

تفقد "علي" العناوين التي كان يقرؤها وهو يتهجى الأحرف في سره، ما زال لم يتقن القراءة بشكل جيد، شعر أنه أوقف البائع كثيرًا فاختار كتابًا عشوائيًا كان "رواية الأجنحة المتكسرة" لجبران..

وبعدها طلب "هاشم" لـ"علي" عصير "مانجو" لم يطلب لنفسه شيئًا؛ خاف أن يتقيأ وهو ليس في البيت.

*****

"اليوم الثالث عشر"

استيقظ "هاشم" في التاسعة صباحًا، تعكز على عكازه واتجه إلى الحمام يتوضأ، أخذ وقتًا طويلًا، كل يوم تبطؤ حركته أكثر من الأمس..

صلى وجلس على المصلية يفكر كعادته في يوم موته، كل يوم يتخيل أنه اليوم الأخير، ولكنه يمر دون أن يموت، تذكر ابنه، اشتاق له كثيرا، لم يتصور أنه سيريد أن يراه، كان يظن أنه فقد فيه الأمل وما عاد يفكر فيه ولكنه استيقظ بحنان جارف له، ظل يتذكر يوم مولده، حين أخبرته الدادة أنه فتى وكيف كان سعيدًا وهو يحمله ويؤذن في أذنه، وكيف كانا يلعبان معا ويأخذه معه في كل مكان.

تعجب كيف له أن يجحد كل ذلك.. إنه حتى لا يهاتفه.

انسابت دموع "هاشم" وهو يفكر في ذلك..

تعب من الجلسة، فقد صار نحيفًا وبرزت عظامه وكان يحتاج إلى شيء وثير.. تحامل على نفسه وجلس على مقعد من الإسفنج، ظل يستغفر وأخذ المصحف يقرأ حتى يستيقظ "علي".

قرأ ثلاثة أجزاء، ولم يستيقظ.. انتابه القلق فذهب لغرفته يوقظه، كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، جلس "هاشم" على حرف السرير وبعد أن أيقظ "علي" قال بقلق:

- هل أنت بخير يا "علي"؟

- أجل.. ولكن سهرت.. قليلا.

تناول الرواية من جواره وواصل:

- كنت أحاول.. القراءة.. في تلك الرواية.. ولكن هناك.. معاني.. كثيرة لا أفهمها.

- هل أصبحت تجيد القراءة؟

- إلى حد.. ما.

ذكره هاشم قائلاً:

- لا تنسى أن تقرأ لي قرآنًا.

- لن أنسى.. هل تريد.. أن تذهب لمكان.. ما اليوم؟

لم يكن "هاشم" مخططًا لشيء، ولكن لمعت في رأسه فكرة، فقال:

- هل ذهبت إلى الملاهي من قبل؟

- لا.

- لم أذهب لها عمري.. لطالما تمنيت أن أجربها وأنا صغير كلما رأيتها في التلفاز.

- ولكنك لن.. تستطيع الآن.. إن التعب.. بادٍ عليك.

- سوف أستطيع بمشيئة الله.

- أشعر أن.. ذلك سيعرضك.. للخطر.

- لم يتبق لي الكثير.. لا أريد أن أموت وأنا ممتلئ بأشياء تمنيتها ولم أحصل عليها.

- حسنا نذهب في المساء بعدما تخف حدة الشمس.

*****

الثالثة مساء

أخذ "هاشم" سيارة أجرة واتجه هو و"علي" إلى "ماجيك لاند" في مدينة ٦ أكتوبر على طريق الواحات، ركب "هاشم" و"علي" "الساقية"، لعبة لا تتطلب مجهودًا بدنيًا، ولكنها تتطلب مجهودًا ذهنيًا كبيرًا إذ كان هاشم مبتسمًا وهو ينظر للحياة من الأعلى، يفكر وهو يرى الناس صغيرة الحجم يشبهون بعضهم كحبات البرتقال، شعر أنه يصعد إلى السماء وتقبل مصيره، لم يكن غاضبًا أو خائفًا كذي قبل، لقد تغيرت منظوراته الفكرية، فكلما ارتفعت الساقية صغرت الدنيا في عينيه حقيقة ومجازًا، فكر أنه عندما يموت لن يفوته شيء من هذه الدنيا فستكون كحبة رمل ومن ذا الذي سوف يرتجي شيئًا من حبة رمل؟!

إن هذه الدنيا خادعة كامرأة لعوب من عرف حقيقتها فلن تغريه في شيء.

تمنى أن يدرك الجميع حقيقة الدنيا كما فهمها الآن، أن يروها بعين رجل عجوز اقترب من الموت، خانته صحته وتخلى عنه أقرب الناس ومات أحباؤه.

إنها كما أخبرنا الله لا تساوي جناح بعوضة.

تنشأ حروب وتقوم ثورات وتنتهي ممالك على لا شيء.. حقا لا شيء.

إن الحكيم هو الذي لا يشغل نفسه بصراعات الدنيا لأنها زائلة ويحاول أن يستمتع؛ فقط فالرحلة قصيرة كومضة.

نزل الاثنان من اللعبة واتجها إلى جزيرة الديناصورات، ركبا القارب الذي يسير بهما في نهر صغير وهما يريان تماثيل الديناصورات بين الأشجار، كان "هاشم" سعيدًا و"علي" أيضًا الذي كان يرى ويجرب أشياء لم يرها من قبل، قال "هاشم" بينما يسير بهما القارب:

- إنني سعيد.. ليتني جئت هنا من قبل.

ضحك ساخرًا:

- كنت أخشى الناس.. لا أحد ينظر للآخر من الأساس، كم كنت غبيًّا وفوّت متعًا كثيرة على نفسي.

ضحك "علي" وهو سعيد، أكمل "هاشم":

- الحياة جميلة يا "علي"، افعل كل ما تود فعله دون مخافة الناس أو خشيتهم، لا تخش إلا الله في أفعالك.. لا تمت وفي صدرك شيء تريد أن تفعله.. الحياة كما أخبرتك فرصة منحت لنا، استغلها دائما، ولكنها أيضًا ليست جميلة بالقدر الكافي الذي يجعلنا نحزن على رحيلنا عنها أتفهمني؟

أومأ "علي" فواصل "هاشم":

- تذكر ذلك دائمًا.

بعدما نزلا اتجها إلى عروض الدولفين، اتخذا مكانين في الأمام، ساعد "علي" "هاشم" على الجلوس، كانت المقاعد من البلاستيك الصلب، يعرف "علي" أن ذلك سيؤلم "هاشم" فتركه وخرج ابتاع وسادتين من الفايبر اللتين تباعان كهدايا ويدون عليهما أسماء، أخبر البائع أنه يريدهما بلا أسماء وعاد لـ"هاشم" وضع واحدة خلف ظهره وواحدة أسفله، فربت "هاشم" على ظهر "علي" بحب

وامتنان، تركه ابنه ولكن الله أرسل له آخر، إن شد العضد لا يكون بقرابة الدم فقط، فقد يكون بأناس لا تربطنا بهم صلة دم ولكن تربطنا بهم صلة رحمة وحب من عند الله، هذا ما جال في رأس "هاشم" في تلك اللحظة.

مرت خمس دقائق وبدأ العرض، يقذف المدرب الكرة ويركض خلفها الدلافين لتأتي بها، ثم يجلب أطواقًا فارغة وتقفز في داخلها، كلما أبلت بلاءً حسنًا يقذف لها بالسمك كمكافأة.

تمرح وتلعب الدلافين بسعادة مطلقة، يأمرها المدرب أن تغني فتصدر أصواتا كأنها تغني بالفعل

ثم يأمر بتشغيل الأغاني لترقص والجمهور يصفق بإيقاع منتظم، في هذا الوقت كان "علي" يفكر في كلام "هاشم" أن يفعل كل ما يود فعله دون مخافة الناس، إنه يخشاهم بشكل كبير.. كان الإيقاع يستفز جسده ليرقص، لمح أطفالًا من حوله يرقصون فثار على نفسه ونهض وظل يرقص في مكانه ويدور على إيقاع التصفيق والغناء وهو مغمض عينيه ومبتسم، كان "هاشم" يصفق له لا للدلافين وهو مبهور وسعيد به أكثر من الدلافين أضعافًا كثيرة.

*****

"اليوم الرابع عشر"

يوم مجيء "نور".. يوم مجيء الربيع بالنسبة لـ"علي".

كان "علي" هشًا لتلك الدرجة، عندما عاملته "نور" بلطف وقع في غرامها.

استيقظ "هاشم" باكرًا وأيقظ "علي"، تناولا الفطور، أكل "هاشم" بصعوبة "علبة زبادي" ولم يتقيأ كعادته فور انتهائه، قال:

- "نور" و"بكر" أبوها على وصول.

يلمح لـ"علي" أن يرحل، فقال "علي" متحمسًا بسعادة لم يستطع إخفاءها:

- حسنًا سأرحل الآن.

- عد غدًا في مثل هذا الوقت.

- حسنًا.

قالها "علي" ونهض يحمل بواقي الطعام والأطباق الفارغة، وعاد معه الأجنحة المتكسرة ودفتره وقلمه مستعدًا للرحيل، فقال "هاشم":

- انتظر.. اجلب لي جلبابين وساعدني في ارتدائهما.

واصل وهو يمسك جلباب البيت الذي يرتديه:

- فوق تلك.. لا أريد أن يلحظ "بكر" انخفاض وزني.

- ولكن الحرارة مرتفعة.

- سوف أعلي المكيف.

جلب "علي" جلبابين وساعد "هاشم" في ارتدائهما واستعد للرحيل، فقال "هاشم" مرة أخرى:

- انتظر.

وقف "علي"، فأعطاه "هاشم" مالًا، قال "علي":

- معي، لقد أعطيتني بالأمس.

- اليوم غير الأمس.

أومأ "علي" مبتسمًا وهو يأخذها، وغادر.

*****

اتجه "علي" إلى أحد محلات بيع الدجاج في محيط مكانه، ابتاع منه رجول ورؤوس الدجاج طعامًا للقطط والكلاب، لمحه أحدهم وهو قادم لهم معرجًا فركض نحوه وتوالى الآخرون خلفه وبعض القطط، حاول حماية الكيس برفعه إلى الأعلى وسار بينهم وهو يضحك ويقول "انتظروا.. انتظروا" حتى وقف في مكان هادئ ووزع عليهم الطعام، وجلس يشاهدهم وهو سعيد..

جاءت الكلبة فلة تتمسح به.. كان قد أطلق عليها هذا الاسم نظرًا للونها الأبيض.. ترك القلم والدفتر والرواية جواره وعانقها وهو يقول:

- كيف حالك يا فلة.. لقد اشتقت إليكِ.

لم يلبث حتى جاء بقية الكلاب واحدًا تلو الآخر يتمسحون به كعادتهم، وزع اهتمامه على الجميع يربت على ذاك ويمسك فك تلك يتفحصها.

وجلس يكتب في دفتره بخطه المتعرج وأخطائه الإملائية، وبعدما انتهى قرأ ما كتبه للكلاب، راح يقول بصوت مرتفع بعض الشيء ليسمعهم دون أن يتلعثم كثيرا، فقد كانت تشتد لعثمته أمام الناس:

- اسمعوا ماذا كتبت.

"شكرا يا الله لقد أعطيتني الكثير، أكثر.. مما أتمنى جمعتني بجدي "هاشم" وأكرمني واليوم سوف تأتي "نور".. التي بعثت فيَّ الحياة كما كان النبي عيسى يحيي الموتى هذا أكثر من أحلامي.. أتمنى ألا تحرمني منهما.

لقد ابتسمت لي الحياة أخيرًا بوجودهما.. أكثر ما أخشاه ألا يستمر هذا الوضع كثيرًا، أرجوك لا تخزني، أرجوك."

كان "علي" محقا أن ما حدث معه كان أكثر من أحلامه، فالحياة تأخذ منحنيات لم نتوقعها قط، إنها تدهشنا دائمًا وتخبرنا أن أحلامنا وقدراتنا على التخيل ضعيفة مقارنة بما تفعله، منذ خمسة عشر يومًا لو أقسم أحدهم له أنه سيحدث معه ما حدث لاتهمه بالجنون ووسع الخيال لا أكثر، ولكنه الآن ينعم وكأنه ما عانى من قبل.

انتهى من القراءة ونظر لهم وهو يقول:

- ما رأيكم؟ جيد أليس كذلك؟!

أتاه صوت أحد أصدقائه وهو يقول: جيد.

نظر "علي" له مبتسمًا، فواصل صديقه:

- تحدث الكلاب؟!

- أشعر أنهم.. يفهمون.. كل شيء.

جلس جواره وهو يقول:

- وما هو الجيد إذن؟

- كنت أقرأ لهم خطابًا كتبته إلى الله.

تابع مبتهجًا:

- أصبحت أجيد القراءة والكتابة.

لم يثر الحديث اهتمام صديقه، كان ممسكًا بفردة من نعله فقال وهو ينظر لبواقي طعام الكلاب والقطط:

- معك مال؟

- أجل.. كم تحتاج؟

- أي مبلغ.. أريد أن أبتاع نعلا فقد قطع نعلي.

صمت قليلاً وأكمل:

- هات عشرين جنيهًا.

مد "علي" يده في جيبه أخرج النقود وأعطاه ثلاثين جنيهًا.

أخذها صديقه وهو يقول:

- متى ستغادر؟

- سوف أبيت هنا.

عقد صديقه حاجبيه وهو يقول باهتمام:

- ماذا حدث مع الرجل؟

- لا شيء.. أنه يوم.. استثنائي وسأعود في.. الغد.

- إذن تعال معي نبتاع نعلًا.

- هيا.

*****

جاءت "نور" بصحبة أبيها.. محملين بكثير من الطعام لحم ودجاج وجبن قريش وقديم وبعض الخضراوات كعادة زيارات الريفيين، استقبلهما "هاشم" بترحاب يليق بهما، شعرت "نور" وهي تعانق جدها بانخفاض وزنه فقد خسر كثيرًا من وزنه، تدهورت صحته في أيام قليلة.

رغم أنه في بيئة كالصعيد تخجل فتاة في مثل عمر "نور" أن تعانق جدها أو عمها أو خالها، ولكن "هاشم" في زيارته الأخيرة لهم أذاب هذا الجليد عندما عانقهم جميعا، لم تعقب "نور" ودخلت الغرفة التي ستكون لها ومعها حقيبة ملابسها.. كانت سعيدة لمجيئها القاهرة التي تراها في التلفاز، فقد سئمت القرية وشوارعها المغبرة المتعرجة والضيقة، والعتمة ليلا والهدوء المخيف الذي يظهر فيه جليا صوت عرير الصراصير ونقيق الضفادع من الحقول المجاورة.

لقد حظيت بفرصة لم تتح لكل أصدقائها، رأت أنها محظوظة، ولكن كان هناك شعور خفي بخيبة الأمل بداخلها يشوش على سعادتها بعض الشيء، فقد كانت تأمل أن تجد "علي"، هي أيضًا وقع في نفسها شيء ما تجاهه لم تكن تفسر ما هو، رغم أنه لم يكن به شيء يغري فتاة مثلها، فهو لم يدخل مدارس ولسانه ثقيل وتظهر عرجة خفيفة في مشيته، ولكنها لامست طيب روحه وبراءته، كان حالة فريدة بالنسبة لها.

ظلت ترص ملابسها وهي مبتسمة كلما مسكت فستانًا تتخيل هل سيعجب "علي" أم لا.

ضحكت على تفكيرها هذا ولامت نفسها أين سيراها من الأساس! ولِمَ تفكر بهذه الطريقة؟ إنها قادمة لخدمة جدها فقط، فما هذه الأفكار البلهاء؟

*****

مر اليوم بجهاد كبير من "هاشم" ليتماسك أمامهما ويبدو صحيح البدن حتى جاء الليل، ولكن كل منهما كان يلاحظ تدهور صحته، سيره ببطء شديد وانخفاض وزنه، كل ذلك كان يشي بخطب ما.

لم يستطع "هاشم" النوم في هذه الليلة، كان يحمل هم انكشاف حياته أمام "نور"، بالتأكيد سترى مرضه وضعفه البادي كوضح النهار، ماذا يقول لها كي لا يكدر عيشها وكي لا تخبر أمها، كان لا يريد أن يقض مضجعهم أو أن يجعلهم يخوضوا جولات فكر شاقة عن يوم موته مثله، يريد أن يموت في هدوء وسكينة، ثم إنه لم يحتمل وجود أحد آخر معه فقد تعود على الوحدة واتسق معها حتى بات الونس يؤرقه، مر اليوم ثقيلًا عليه لا يعرف ماذا يفعل وماذا يقول، لم يرتح سوى في وجود "علي" لأنه هو الوحيد الذي يعرف حقيقته كلها وحقيقة أنه يسير نحو الموت بخطى واسعة.

*****

"اليوم الخامس عشر"

السابعة صباحًا حضّرت "نور" الفطور قبل أن يغادر أبوها وأيقظت جدها الذي كان يتظاهر بالنوم، خرج للصالة جلس معهما، ولكنه لم يأكل، قال وهو يربت على ظهر "نور":

- لم أتناول فطوري الآن.. ربما بعد ساعتين.

قال "بكر" وهو يغمس لقمته في طبق الفول:

- إن ذقت الفول الذي تعده "نور" سوف تفطر الآن وبعد ساعتين.

ابتسمت "نور" قائلة وهي تنظر لأبيها:

- لقد تعلمت الطريقة منه.

فضحك "هاشم" وهو يقول:

- إذن هو يشكر في نفسه بشكل مبطن.

قال "بكر" متصنعا الاعتراض:

- بل بشكل علني.. إن "نور" مني وكل شيء يخصها يخصني.

ابتسمت "نور".. كانت وسط عصبة من الذكور؛ لذا فهي فتاته المدللة، واصل بعدما مضغ ما في فمه:

- يا حظك بوجودها معك.

لم تصمد "نور" كثيرًا وتركت رغيف الخبز وقامت قبلت رأس أبيها.

أحب "هاشم" هذه الحميمية، كان مفتقدًا جو العائلة منذ سنوات طويلة، إنها صورة من أمها في الرقة والحنان، رغم تذمره من وجودهما، ولكنه شعر بالألفة وكان سعيدًا.. وقرر إنهاء خلافه المبطن مع بكر.

قال له بعدما دخلت "نور" ببواقي الطعام المطبخ:

- أشعر أننا غير صافيين لبعضنا.

تصنع "بكر" عدم الفهم وقال:كيف؟

- أنت تعرف يا "بكر" وأنا أعرف.

أصبح "بكر" في زاوية ضيقة لم يعرف ماذا يقول، فواصل "هاشم":

- عندما آتي عندكم يظهر جليًا أنك لا تطيقني؛ وذلك ما جعلني أستقر هنا وحدي بعد وفاة

زوجتي حتى لا أفسد علاقتك أنت و"وردة"، هي تحبك وأنت إنسان جيد، ولكنك لم تكن تقدر خوف أب على ابنته.. عمومًا أتمنى ألا تكون غاضبًا مني.

- لست غاضبًا منك يا عمي.. ربما كنا على خلاف، ولكني آمل ألا تكون أنت أيضًا غاضبًا مني.

قال "هاشم" على طريقة الأطفال: صافٍ يا لبن؟

ضحك بكر قائلًا: حليب يا قشطة.

غادر "بكر" بعد تناوله الفطور، وودع "نور" بعناق وقبلة على جبينها.. أحب "هاشم" علاقتهما كثيرًا، لقد أحسنت "وردة" الاختيار وأجادت التربية، هكذا فكر.

*****

بعدما رحل "بكر" كان "هاشم" في ورطة كبيرة، إذ كان في حيرة من أمره، أيخبرها بمرضه أم لا، فبالتأكيد سوف تعرف، ظل صامتًا غارقًا في التفكير لا يعرف ماذا يفعل، فقالت "نور" لتغزو الصمت:

- كيف حالك يا جدي.. أشعر أنك فقدت الكثير من وزنك.

سخر بينه وبين نفسه، ما زالت لم تر شيئا وتقول ذلك، ما زالت لم تر تقيؤه ونوبات ألمه التي لا تزول سوى بالترامادول، أخذ قرار أن يخبرها، ولكنه كان يفكر في صيغة ما سيقوله، فطال الصمت، قالت "نور" بقلق:

- جدي!

نظر لها ساهمًا وهو يفكر في شيء يقوله، ابتسامتها كانت جميلة فتراجع في قراره وتذكر فتاة المستشفى التي قالت له التهاب في المرارة، فقال:

- أنا مريض هذه الأيام.. عندي التهاب في المرارة لا أأكل جيدا ففقدت الكثير من وزني.

قطبت "نور" جبينها وقالت بنبرة حزينة:

- شفاك الله وعافاك.. هل تأخذ دواء؟

أومأ هاشم قائلًا:

- نعم.

- سوف تشفى سريعًا بإذن الله.

*****

العاشرة صباحًا، كانت "نور" تلح على جدها أن يتناول الفطور الذي حضرته مرة أخرى، ولكنه لم تكن لديه شهية، فقالت:

- يا جدي ما فائدة وجودي إذن.. أنا هنا لأرعاك.

هم أن يرد، ولكنه سمع طرقات على الباب، فقال:

- هذا "علي".. افتحي الباب.

ابتسمت لسماع اسمه وذهبت نحو الباب لتفتحه، رآها "علي" فازدرد ريقه في محاولة بائسة للسيطرة على ثباته الانفعالي، فقد خفق قلبه حتى كاد ينخلع من قفصه الصدري، فقبض بيده على الكتاب والدفتر، رغم أنه طوال الطريق يعد نفسه لهذه اللحظة، كان يريد أن يقول لها كيف حالك، ولكن تاهت كل الكلمات من فمه فوقف صامتًا حتى قالت:

- ادخل.

دخل ووقف جوار "هاشم" مرتبكًا بعدما حيّاهُ وجلست "نور" أمامهما، فقال "هاشم" وهو يشير جانبه:

- اجلس يا "علي".

جلس "علي" ووجه "هاشم" حديثه لـ"نور" قائلا:

- إن "علي" يعيش معي يا "نور".. لا يجب لأمك أن تعرف ذلك.

باستغراب قالت:

- لماذا؟

- لأنها ستطلب رحيل "علي" أو رحيلك أنت، وأنا لم أستطع الاستغناء عن "علي".

صمت قليلاً وأكمل:

- ولا أريد رحيلك أيضًا.

ابتسمت "نور" رغم أنها كانت غير متيقنة من حديثه، شعرت أنه قالها مجاملة ولا يعنيها حقا، بينما واصل "هاشم":

- ما رأيكما إن ذهبنا اليوم إلى السينما؟

قالت "نور" بحماس:

- حقًا؟

- أجل.

- لم أذهب لها من قبل!

قال "علي":

- وأنا.. أيضًا.

ابتسم "هاشم" عندما رأى حماسهما وقال:

- ستحبانها.. الأفلام عوالم أخرى تغيبنا قليلاً عن الواقع، وهذا مطلوب أحيانًا.

- مطلوب لماذا؟

قالت "نور"، فأجاب "هاشم":

- إذا ركزنا في حقيقة الوجود ونهايته فسنجد الأمر محض معاناة.. علينا أن نتغيب عن الواقع بإرادتنا، ألا نكون منتبهين دائمًا، حتى لا نجن.

لم تفهم "نور" كثيرًا، هو يعرف أنها لم تفهم، ولكنها كلمات أراد أن يقولها، أما "علي" ففهمه جيدًا فقد كانت تمر عليه أيام كان يريد أن يختفي أو أن يهرب لشيء ما يُنسّيه واقعه قليلًا، ولكن لم تكن لديه رفاهية الهروب كقراءة كتاب أو مشاهدة مسلسل أو فيلم أو حتى الذهاب إلى البحر، كان النوم ملجأه الوحيد، ربما ستفهم "نور" هذا الكلام عندما تكبر..

ولكنها قالت:

- ولكن هناك شرطًا قبل أن نذهب.

بتعجب قال "هاشم":

- وما هو؟

- أن تتناول فطورك.

نظرت نحو "علي" وقالت:

- هل تناولت فطورك؟

قبل أن يرد، قال "هاشم":

- سوف يأكل معي.

وجهت لهما صينية الطعام، وتركتهما ودخلت الشرفة، لتشاهد شكل الحياة في العاصمة، تابعها "هاشم" بعينيه وهي تسير نحو الشرفة في آخر الصالة، ضحك بينه وبين نفسه على إصرارها على تناوله الفطور، كانت تمارس دور الأمومة دون أن تدري، ما أحن الفتيات وما أطيب وجودهن.

انتبه أنها غادرت فاستغل ذلك وقال لـ"علي":

- لقد أخبرتها أنني مريض بالتهاب المرارة.. لا تقل غير ذلك.

أومأ "علي" قائلاً:

- حسنًا.

*****

من الطابق الثاني كانت "نور" قريبة من الشارع الذي تضج فيه الحياة، تنظر إلى المارة والسيارات، والباعة الذين لم تكن تفهم ماذا يقولون، كانوا يصدرون أصواتا لا تُفسر بالنسبة لها، ولكنها كانت تلاحظ أنه كلما مر بائع، أن إحدى الشرفات تنفتح وتدلي عجوز السبت أو امرأة أو بعض الأطفال ليبتاعوا الشيء الذي يباع، معنى ذلك أنهم يفهمون ما يقول!

تساءلت هل يفهمون ما يقول حقًا أم أنهم يعرفون ما يبيع من مواقف سابقة جمعتهم فأصبحوا يميزون صوته دون أن يفهموا؟ انتشلها من تلك الأفكار صوت جدها وهو يتقيأ، دخلت على الفور، فرأت "علي" ممسكًا بوعاء بلاستيكي كبير و"هاشم" منكب عليه يتقيأ ما أكله، قالت بفزع:

- جدي.. ماذا بك؟

بلجلجة قال "علي": التهاب.. المرارة.

مسح "هاشم" فمه وقال بشفاه مرتعشة:

- لا تقلقي، سوف أكون بخير.

راحت تربت على ظهره وهي تقول: بإذن الله.

بعدما انتهى ساعدته هي و"علي" على النهوض ليذهب إلى الحمام ويغتسل، وأخذ "علي" الوعاء ينظفه، ولكن "نور" أخذته

منه لتنظفه هي دون أن تتقزز، كانت رؤيتها لجدها في هذا الحال مربكة، شعرت بالذنب، ظنت أنها سبب ما حدث لأنها أصرت على أن يأكل ولم تكن لديه رغبة، بعدما تحسنت حالته ذهبت له عند السرير جلست جواره من الناحية الأخرى لأن "علي" كان بشماله وقالت حزينة:

- أنا آسفة يا جدي.. لم أكن أعلم أنك إذا تناولت فطورك الآن سوف تتعب هكذا.

ابتسم "هاشم" وضمها لصدره وقبّل رأسها وهو يقول:

- هذا أمر طبيعي.. لابد أن تعتادي على ذلك.

- لن يحدث مجددا.. غيّر الطبيب والدواء وسوف تكون بخير.

- يا رب.

- أصنع لك كوب ليمون؟

ربت "هاشم" على ظهرها قائلاً:

- ليس الآن.

*****

الرابعة مساء أراد أن يأخذهما إلى السينما التي يرتادها في نفس مدينته، سينما جالاكسي في شارع عبد العزيز آل سعود، رغم أنه كان خلفه سينما فاتن حمامة، ولكن يربطه شيء ما بجالاكسي، فاعترضت "نور" قائلة:

- أنت اليوم مجهد.. نذهب في الغد إن شاء الله.

- أنا لا أؤجل شيئًا عزمت على فعله.

واصل مداعبًا:

- واسألي "علي".

نظرت نحو "علي" الذي قال:

- لا مفر.

- ولكن...

قاطعها "هاشم" قائلًا:

- لا تكثري الكلام لأننا بالنهاية سوف نذهب.

لم تملك "نور" إلا الانصياع ودخلت لترتدي ملابس للخروج، بعد عشر دقائق خرجت وجدتهما جاهزين بانتظارها.

استند "هاشم" بيمينه على العكاز ويد "علي" من عند مرفقه وبشماله على يد "نور"، أثناء سيرهم قال:

- أقترح أن نرى فيلمًا كوميديًا أم أن هناك فيلمًا معينًا تريدان رؤيته؟

قالت "نور": أحب الكوميدي أيضًا.

قال "هاشم": وأنت يا "علي"؟

بلسان ثقيل أجاب: أي شيء.

لم يشاهد "علي" في عمره الصغير سوى مشاهد عشوائية من المقاهي، وفيلمين فقط كاملين عندما كان في الملجأ، فيلم "جاءنا البيان التالي" وأعجبه كثيرًا والفيلم الآخر "واحد من الناس" ولم يعجبه لأنه كان مليئًا بالمعاناة وأدخله في نوبة اكتئاب شديدة، جعلته يرى الحياة والناس بصورة أخرى شديدة السوداوية، لم يكن

يعرف أن ذلك يسمى اكتئابًا، لم يكن تأثير الفن جيدا دائمًا فكثيرا ما ينكأ الجراح المفتوحة، فقال مستدركًا ببطئه المعهود:

- إن كان.. فيلمًا يجعلنا.. نضحك.. فهذا أفضل.

قال "هاشم": حسنا.. إذن فهو كوميدي كما اقترحت.

*****

بعدما انتهى الفيلم أخذهما "هاشم" إلى كورنيش النيل، ابتاع لهما ذرة مشوية وراحوا يتحدثون وهم يأكلونها، قال "هاشم" وما زال لم يأكل منها:

- أحبها في الشتاء أكثر.

قالت "نور" بعدما مضغت ما في فمها: أنا أحبها في أي وقت.

لم يتكلم "علي"، ولكنه كان سعيدًا، رأت "نور" أن جدها يبدو متعبًا فقالت:

- لماذا أصررت يا جدي على أن ننزل اليوم.. كان من الممكن أن ننزل غدًا أو بعد غد.

- الوقت يا ابنتي هو ميراثك في الحياة.. كل تأجيل لشيء ينقصه.

راحت "نور" تقضم الذرة وهي تنظر لمياه النيل، كانت تخاف شكل المياه ليلا، لأنها تجعلها تتخيل الجنيات والنداهات وهم يغوون البشر ويقتلونهم، بينما "علي" كان ينظر للمياه وهو لا يكاد يراها، كان يفكر في حياته القادمة مع "نور"، يتخيل أنهما تزوجا وهما يتسوقان معًا، وتارة وهما يشربان الشاي ويتحدثان، كان يتخيل أن كلامه يخرج من لسانه معها بسلاسة دون ثقل أو مط في الأحرف أو لعثمة..

أما "هاشم" كان منظر المياه يبعث فيه الشجن، هنا أتى هو وزوجته، وهنا أتى هو وابنه، وهنا أتى هو وصديقه، كلهم ذهبوا ولم يبق سواه وآن أوان ذهابه.. راح يفكر هل سيأتي يوم ويجيء "علي" أو "نور" إلى هنا ويتذكران هذه اللحظة كما يتذكر الراحلين عنه، إن المرء لا يموت طالما أنه يعيش في ذاكرة أحدهم، فقط يموت عندما ينساه الجميع، أكل قضمة من الذرة فآلمته بطنه، راح يجد في إخفاء ألمه وألم قدميه من الوقفة، فقد قرر ألا يأخذ الترامادول اليوم حتى لا يصيبه النعاس ليأخذهما إلى السينما كما وعدهما.

عندما رآه "علي" عرف أنه يتألم كما أنه لا يستطيع الوقوف لوقت طويل رغم أنهم لم يكملوا عشر دقائق، ولكن ذلك وقت طويل جدا بالنسبة لـ"هاشم"، فقال "علي":

- هيا.. يا جدي نذهب.. إلى البيت.. لترتاح.

- هيا.

رد "هاشم" سريعًا، فأخذ الاثنين بيده، وهم في طريق العودة، أعطى لـ"علي" بعض المال ليبتاع طعامًا للعشاء، بعدما عادوا أخذ الدواء وجلس معهما وهما يأكلان، وظل الثلاثة يتحدثون عن المشاهد المضحكة في الفيلم وأشياء أخرى، كان يقاوم "هاشم" النعاس والإجهاد حتى لا يقطع عليهما تلك السهرة الجميلة، ولكنه لم يصمد كثيرا وأخبر "نور" أن تدخل غرفتها لتنام ودخل غرفته هو أيضًا لينام، ومن ثم "علي" فعل مثلهما.

*****

اليوم السادس عشر

الساعة العاشرة صباحًا استيقظت "نور" أولاً، عزمت على أن تنظف الشقة فالغبار كان يغطي كل شيء، مسحت شاشة التلفاز بسبابتها وجدت الغبار قد كسا إصبعها، كان "هاشم" يجلب سيدة تنظف البيت كل أسبوع، ولكن منذ أن اكتشف مرضه نسي أمرها، فكرة اقترابه من الموت أربكته فأنسته تلك الأمور وشغلته بأمور أخرى أكثر جدية.

فتحت "نور" النوافذ وأخذت تمسح الغبار من على الأسطح بقماشة رطبة، ثم أخذت المصلية تنفض الأشياء الغائرة، على هذا الصوت استيقظ "علي"، خرج للصالة فقال:

- ماذا.. تفعلين؟

بمرح قالت:

- أجري حملة نظافة.

- سوف.. أساعدك.

أعطته قطعة من القماش وأخذ يمسح الأسطح معها.

بعدما فرغا من مسح الغبار، كان "علي" يرفع الأثاث و"نور" تكنس تحته، وأعاد الاثنان ترتيب بعض الأشياء، ونظفا المطبخ والحمام، ورشت نور معطرًا للجو، ولأول مرة منذ أيام كثيرة تدخل أشعة الشمس، إن وجود المرأة في البيت شكل من أشكال النعيم، وبدونها يصبح البيت مليئًا بالغبار والكآبة، فقد أضافت "نور" روحًا

للبيت وبهجة.. جلس الاثنان على الأريكة يلتقطان أنفاسهما بعدما انتهيا، فقالت "نور":

- من كان يتولى شؤون البيت من نظافة وطعام؟

أجاب:

- كنا.. نأكل من المطاعم.. باستثناء الفطور كنت.. أعده أنا.. وغسيل.. الملابس كنا.. نعطيه للمغسلة التي.. أسفل العقار ونأخذه جافًا.. ومكويًا.

أومأت "نور" صامتة ثم قالت:

- وماذا تفعل فيما تبقى من يومك؟

- أذهب إلى كلابي وقططي أطعمها وأجلس معها.

قالت "نور" بشيء من الانبهار:

- ألا تخاف الكلاب؟

- آخر شيء.. من الممكن أن.. أخاف منه.. هو.. الكلاب.. إنهم أصدقائي.

- أنا أخاف الكلاب كثيرًا.

- أنا أخاف البشر أكثر.. إنهم يشعرونني.. بضيق التنفس.

ضحكت، كانت تظنه يمزح، ولكنه كان يعنيها.

*****

الواحدة مساء

استيقظ "هاشم"، وضع قدميه على الأرض وظل جالسًا على السرير، هذا الوضع يكرره يوميًا كلما استيقظ.. أحيانًا يستغرق خمس دقائق وأحيانا يستغرق أكثر من نصف الساعة، نظر في ساعة الهاتف وجدها الواحدة بعدها سمع "نور" و"علي" يتحدثان، لام نفسه لقد نام كثيرًا وتركهما وحدهما كل هذه المدة، هذا لا يصح، لا ينبغي أن يعيش فتى وفتاة في عمرهما وحدهما، هو معهما، ولكن آلامه تجعله ينام أكثر منهما.

فكر أنه كان ينبغي أن يرفض قدوم "نور" بحزم، أو أن يستغنى عن "علي"، ولكن ذلك لا يقدر عليه.. لم يكن عنده استعداد لتكرار تجربته مع "نادية" بشكل آخر مع "علي"، لم يحتمل نفسه إذا فعلها، ثم إنه يحب "علي"، أصبح عنده بمنزلة الولد، فكيف يستطيع الاستغناء عن ولده الذي يتعكز به حقيقة لا مجازًا؟ "علي" يفهمه قبل أن يتكلم، يعرفه عندما يتألم دون أن يبوح بذلك، يعرف ما يحتاجه قبل أن يتفوه به، علاقته بـ"علي" كانت أكثر من صداقة وأبوة، شعر أنه في مأزق، ولكنه يثق بـ"علي" تمام الثقة فما هذه الأفكار، لام نفسه عليها أيضًا، إنه يستطيع أن يأمن له على كل شيء يخصه فلا ينبغي أن يقلق مثقال ذرة، اهتدى لهذه الفكرة ثم نهض مستندًا على العكاز وخرج لهما.

*****

كانت "نور" ممسكة بألبوم صور العائلة تتصفحه هي و"علي".. عندما رأت "نور" جدها تركت الألبوم ونهضت لتساعده في السير،

ونهض "علي" بالتبعية، وساعد الاثنان "هاشم" للجلوس على أريكته الوثيرة الوردية، فقال "هاشم":

- أعجبتكما الصور؟

صمت قليلا ثم طرح سؤالا: من وجد الألبوم.

قالت "نور":

- أنا.. كنا ننظف الشقة ووجدته فوق الخزانة والغبار يعلوه كالتلال.

- أعطني إياه.

أعطته له "نور"، فأخذ يتصفحه، رأى صورة تجمعه بزوجته وابنه و"وردة"، كان جالسًا على كرسي جوار كرسي زوجته وأمامهما ابنهما و"وردة" يجلسان القرفصاء، شعر بالنوستالجيا، تذكر الماضي البعيد وحن له، كان سعيدًا حينها، ولكنه لم يكن يعي ذلك، كان بصحة جيدة وحياته مستقرة، زوجته حية ومعه أبناؤه قبل أن تفرقهم الحياة.. تعجب لماذا لم يكن يشعر بتلك السعادة البالغة حينها، ما كان ينقصه؟

صحة وزوجة، وأبناء، ووظيفة، ومال!

يا لجحود الإنسان عندما يألف النعمة، ابتسم نصف ابتسامة ساخرة وهو يقارن حاله الآن بالماضي.

انتشلته "نور" من أفكاره وهي تقول:

- شكلك تغير كثيرا يا جدي.. كأنك تبدلت.

- الزمان يغيرنا ويتغير علينا.

أشار للصورة وهو يقول: "هاشم" هذا غير "هاشم" ذاك.

قال الأخيرة وهو يشير لنفسه.. واصل حزينًا:

- بشكله وأفكاره وأمانيه حتى صحته كل شيء تبدل عدا اسمي، هو الوحيد الذي يدل عليَّ.

أرادت "نور" أن تفتح حوارًا آخر فقالت:

- خالي يشبهك وأنت صغير.. لولا الصور لم أكن لأعرف شكله.

صمت "هاشم"، تصيبه "نور" في مقتل دون أن تدري، تذكره بعبث الدهر به وتخلي ابنه الوحيد عنه، كان يمكن أن يهاجر كما هاجر ولكنه يظل على صلة به، التكنولوجيا لم تدع شيئًا إلا أوجدت له حلًا، يتواصل الناس بالصوت والصورة، كان يتمنى أن يحرص ابنه على التواصل معه وينزل ليزوره في إجازاته ويجلب له أجهزة حديثة كالهواتف والحواسيب ويشرح له كيف يتواصل معه على مواقع التواصل الاجتماعي وكيف يحدثه صوتًا وصورة، كما كان يشرح هو له الأمور وهو صغير، ولكن "هاشم" اكتشف أمرًا كان غائبًا عنه، أنه عندما يموت سوف يموت اسمه معه، اسمه الذي يرى الآن أنه الشيء الوحيد الذي يدل عليه، سوف يقول "علي" و"نور" وبقية أحفاده جدي رحمه الله، وسوف تقول "وردة" أبي رحمه الله، لن يقول أحد "هاشم"! فصديقه الذي كان سيقوله قد مات، ولكن الصور تدل على الراحلين، تثبت أنهم كانوا ها هنا يومًا.

فاقترح عليهما أن يذهبا للتصوير معًا.

*****

الخامسة مساء أخذهما "هاشم" لاستديو داوود على ناصية شارع عبد العزيز آل سعود، لم يكن يبعد عن شارع لبيب البتانوني

كثيرا فقط عدة نواصي، ولكنه أخذ سيارة أجرة، لم تعد صحته تتحمل أي شيء، كان هذا الاستديو الذي يتصور فيه دائما هو وزوجته وأبناؤه، يعرفه منذ جاء القاهرة.

أخذ صورة وحده لتذكرهم به عندما يرحل، وصورة مع "نور" وحدها وصورة مع "علي" وحده ثم صورة تجمعهم، جلس على كرسي ووقف "علي" بشماله و"نور" بيمينه وهما يضعان أيديهما على كتفه، وبعدها أخذهما لكورنيش النيل كأمس، على كوبري عباس، كان مجاورًا للاستديو، عبروا الشارع ووقف الثلاثة.

ولكن اليوم لفت انتباه أحد الصيادين ضعفه.. وجهه الشاحب ونحوله وتعكزه فأعطاهم مقعدًا، جلس "هاشم" ووقف "علي" بشماله و"نور" بيمينه كما بالصورة، قالت "نور" وهي تنظر أمامها نحو المياه المصبوغة بأشعة الشمس:

- لا تبدو المياه في النهار مخيفة كما هي في الليل.

سألها "هاشم" باهتمام: بماذا توحي لكِ في الليل؟

- بالعفاريت.. أشعر أن بالأعماق حفلة تقيمها الجنيات والنداهات على بشري غارق.

ضحك "هاشم" على خيالها وهو يقول:

- جدتك أيضًا كانت تخاف النظر إليها في الليل، وتقول إنها مسكونة، وهذه نفس نظريتك، يبدو أنه حتى الخوف يتوارث.

ضحكت "نور" معه، بينما فكر "علي" في عائلته ترى من كان يرهب الناس والتلامس مثله؟ من كان بلسان ثقيل مثله؟ أكان جده، أم جدته، أم أبوه أو أمه؟

انتشله "هاشم" من ذلك التفكير وهو يقول له:

- وأنت يا "علي" هل تخاف المياه ليلاً؟

قال "علي" وهو يمط الأحرف:

- كل شيء في الليل يرهب، شكل المياه وأشجار النخيل والهدوء وضجيج الرأس.

صمت قليلاً وواصل:

- ولكن.. إن كنت.. مع أناس تحبهم فإنك.. لا.. تشعر بالخوف.

نظر له "هاشم" بإعجاب وهو يقول:

- أصبت يا "علي"، إن الرفقة الحقيقية تحميك من المخاوف ومن كل شيء.

توقف الحديث دونما اتفاق ونظروا جميعا أمامهم للمياه، كلٌ لاهٍ في دنيته، "هاشم" في يوم موته تراه اليوم أو غدا؟ رغم أنه كان خائفًا من مواجهة الموت كثيرا ومصيره المجهول، ولكن جزءًا به كان يتمنى لو يموت اليوم وينتهي الأمر، الخوف يقتله لم يعد يريد ذلك الشعور، كل الانتظار ممل وكئيب، ولكن انتظار الموت شعور لا يحتمل.

و"نور" كانت تنظر للمياه وهي مبهورة لا تكاد تتخيل طول النيل واتساعه، إنه جميل، أعجبتها المراكب التي تمر من أمامها، كانت تبتسم كلما مر مركب وترى ركابه وهم يتراقصون على صوت الأغاني الشعبية، أول مركب رأته ظنته عُرسًا، ولكن "هاشم" أخبرها أنها نزهة نيلية معتادة، أرادت أن تركبه وتعيش تلك الأجواء لا تشاهدها، ولكن خجلت أن تصرح بذلك نظرًا لتدهور صحة جدها.

أما "علي" فكان يفكر في "نور" كعادته، منذ رآها وهو لا يفكر في شيء إلا بها حتى وهي جواره.

*****

بينما هم عائدون في طريقهم، لم يستقلوا سيارة أجرة كما جاءوا، المسافة قصيرة فشارعه متفرع من هذا الشارع الذي يسيرون به، وقد جاءت لـ"هاشم" رغبة أن يودع شوارع المنيل قبل أن تضمر عظامه أكثر، تحامل على نفسه، ساروا بجانب الطريق وهو يتعكز على عكازه وعليهما، سار وهو يتلفت حوله، يحب المنيل بكل ما فيها من شوارع هادئة ومزدحمة، حتى هذا الشارع الرئيسي الذي يسيرون به شارع منيل الروضة، رغم أنه كان دائمًا مكتظًا بالسيارات والناس ومليئًا بالضجيج، ولكنه أكثر شارع كان يرتاده هو وشارع عبد العزيز آل سعود الذي به السينما، ساروا حتى مسجد الشريف، نظر له بابتسامة حزينة، هنا كان يصلي دائمًا، ترى هذا المسجد سيشهد على صلواته؟

أخبرهما أنه يريد أن يصلي المغرب فيه، دخل "علي" و"هاشم" ودخلت "نور" معهما رغم أنه كان للرجال، ساعد الاثنان "هاشم" على الوضوء وتوضأ "علي" وصلى جوار كرسي "هاشم"، بينما "نور" لم تُصل معهما نظرا لأنها كانت بلا حجاب، ما زالت لم تتحجب بعد، جلست في إحدى زوايا المسجد تنظر لهما، شعرت بضعف جدها ومرضه، يداه ترتجفان وعظامه بارزة، أصبح كتلة من العظام مكسية بالجلد فانهمرت عبراتها بلا إنذار كالسيول ولم تستطع السيطرة عليها، ظلت تمسحها بأطراف أصابعها وأكمامها، حتى لا يلحظ أحد، فقد شعرت أن جدها أوشك على الموت، رأت الموت بعينيه المرتخية وملامحه ورجفة يده، لم تكن تعرف شكل

الموت من قبل ولكنه شعور أتاها، أن هذا هو الموت، هَدَأت من روعها وكذبت شعورها وأخذت تدعو لجدها بالشفاء والعمر المديد.

انتهى "علي" من صلاته وجلس موضعه يحتضن ساقيه، بينما "هاشم" كان يطيل صلاته ما استطاع ويدعو كثيرا، أن يرحمه الله وأن يموت بلا ألم، وهو نائم في هدوء.

بعدما انتهوا وخرجوا من المسجد مروا أمام مطعم البحرين للمأكولات البحرية، هذا المطعم كان "هاشم" يأكل فيه هو وزوجته أحيانا، فقال لهما:

- انتظرا.. سوف نتغدى في هذا المطعم.

دخلوا وما زالا يسندانه وجلسوا على أقرب طاولة.

أعطاهما "هاشم" قائمة الطعام ليختارا ما يحبانه، ولكنهما قالا كعادة الخجولين في تلك المواقف: "أي شيء"

فطلب لهما "هاشم" ما يحبه، سمك بلطي مقلي وجمبري، تناول واحدة من الجمبري بصعوبة وتظاهر بأنه يأكل وهو يتأملهما وهما يأكلان، كان يغبطهما لا لأنهما يأكلان بسهولة وهو لا يستطيع، ولكن لأنهما في بداية الحياة ما زالا يكتشفان العالم والناس.. أمامهما الحياة بطولها وعرضها، هناك أفلام جديدة سيشاهدنها وأماكن لم يطآها من قبل سيذهبان لها، واختراعات

جديدة سيعاصرانها، سيقعان في الحب بالتأكيد وسينكسر قلباهما حتما، ولكن هذا سيعلمهما الكثير ويجعلهما أفضل، أحيانا انكسار القلب يكون مفيدًا، لأنه يجعل المرء أكثر دراية بالحياة ونفوس من حوله، فيكون حريصًا لاحقًا في تعامله مع الناس.

*****

ربما تُحب "نور" بعد عام أو اثنين أحد جيرانهم ويكتشف أحد من أهلها الأمر فيحيلوا بينهما، أو ربما تكتشف أنه كاذب فينتهي الأمر بنهاية حزينة، وتحاول "نور" أن تُحسن من نفسها وتبرز جمالها لتثبت له أنه كان مخطئًا وأنه لم يجد مثلها مرة أخرى، وربما "علي" يُحب "نور" فهذه أول أنثى يتعامل معها، لم يدر "هاشم" أن "علي" أحب "نور" بالفعل، أما هي فلم تكن تفسر ما تشعر به نحو "علي"، لا تعرف هل هي تشفق عليه، رغم أنها لا تعلم قصته ولكنها شعرت أن قصته مأسوية على نحو ما، أم هي معجبة به، "علي" كان وسيمًا وشعره الطويل زاد من حسنه، لم تكن تستطيع أن تفسر مشاعرها، ما زالت لم تفهم، ولكنها سعيدة بوجوده معهما.

*****

عادوا للبيت في الثامنة مساءً، عندما دخلوا الشقة أخبرهما "هاشم" أن يدخلاه عند السرير لا الأريكة، ليفرد جسده الذي يغزوه الألم، جلبت له "نور" كوب ماء وأخذ الترامادول وتهيأ للنوم، فقال "علي":

- سأذهب لكلابي.

أومأ له "هاشم" أن يذهب، فقال "علي" بتردد وتلعثم:

- أريد.. أن آخذ "نور" معي.. هي تخاف.. الكلاب، أريد أن.. أريها كم هم.. حنونون.

سعدت "نور" باقتراحه، ولكن "هاشم" قال:

- في الصباح خذها أما الآن أخشى أن يتعرض لكما أحد.

أومأ "علي" متفهمًا، وذهب وحده..

فجلست "نور" جوار جدها المستلقي على ظهره وقالت:

- هل ستنام الآن؟

- إذا جلستِ معي فلن أنام.

تربعت جواره وهي تقول:

- بالطبع سأجلس معك.

- هل أعجبتك القاهرة؟

- هي جميلة، ولكنها مخيفة.. أعني شوارعها بلا نهاية والناس كثيرة.

- عندما جئتها لأول مرة كنت أراها أسوأ مدينة في العالم، ولكن الآن أحبها وأراها أجمل المدن.

صمت قليلاً وواصل:

- هذا يفسر لي أنه لا ينبغي أن نحكم حكمًا أوليًا على أي شيء.

- اكتشفت شيئًا شديد الغرابة.

- ما هو؟

- أن الفجر يؤذن مرتين هنا.

ضحك "هاشم" قائلاً:

- إنه يؤذن مرة لينّبه الناس وتلك لا تحتسب ومرة أخرى في موعده الصحيح.

دق هاتف "هاشم"، كان دائمًا ما يضعه تحت وسادته، شعر باهتزاز فقال لـ"نور":

- هاتفي يدق.. اجلبيه من تحت الوسادة.

أخذته "نور" نظرت به فقالت وهي تعطيه له:

- إنها أمي.

أسرع "هاشم" يقول: لا تخبريها بشيء.

لم تكن تريد أن تطاوعه، ولكنها أومأت برأسها أن حسنًا.

*****

اليوم السابع عشر

العاشرة صباحا كان "علي" قد استيقظ ثم "نور"، خرجت للصالة وجدته، فقالت: صباح الخير وهي متجهة نحو دورة المياه، رد "علي" الصباح وهو يكاد يشعر أنه في حلم، هذا اليوم الثالث لها معهما وحتى الآن لم يستوعب، يشعر أنه في حلم طويل، ولكنه جميل على غير عادة أحلامه المليئة بالكوابيس والهروب من شيء ما، دخل المطبخ أعد الفطور وهو مبتسم ابتسامة واسعة تنم عن سعادة كبيرة، سخن رغيفين من الخبز ووضع كمية من الجبن في طبق، كان ذلك الجبن والخبز من الطعام الذي جلبته "نور" معها هي وأبوها.

قبل أن يضعها في الصينية جاءت "نور" فتحت ذراعيها مستندة بهما على إطار الباب وهي تقول:

- ماذا تفعل؟

- أعد.. الفطور.

- هل جدي سيستيقظ الآن؟

- لا، أمامه حتى الواحدة أو الثانية مساء.

أومأت وهي تقول: ماذا تعد؟

- جبن وخبز.

لم ترد، فتحت الثلاجة وأخذت بعضًا من الطماطم والخيار غسلتها جيدًا وقطعتها وأعدت كوبين من الشاي بالحليب.

رصت الأطباق بالصينية ووضعت كوبي الشاي في صينية أخرى، أعطته إياها وحملت هي صينية الطعام، رغم أنه كان عملًا بسيطًا، ولكنه ابتسم مبهورًا بها، لمستها دائمًا تُجمّل الأشياء حتى حياته البائسة جعلت لها معنى وجمّلتها بعدما كانت شديدة القبح.. لم تكن "نور" تعرف أن لها هذا التأثير في حياة "علي" لأنها لم تكن لتفعل له شيئًا ملموسًا، وهذا أجمل ما في فكرة أن يحبك إنسان، أنك تكون بنفسك قيمة دون أي شيء تفعله، فقط وجودك وحده يعطي سعادة ويؤثر في حياة آخر.

*****

بعدما تناولا الفطور، وأعاد الاثنان الطعام وكل شيء كما كان، سأل "علي" "نور":

- ستأتي معي عند.. الكلاب؟

- أجل.. كنت قد نسيت.

صمتت قليلا وواصلت بنبرة تشي بالخوف والتردد:

- ماذا لو واحد منهم هجم عليَّ؟

- هم أطيب من هذا.. إنهم مسالمون.. لا يؤذون إلا من يحاول.. أذيتهم.

اطمأنت "نور" وقالت: حسنًا.. متى سنذهب؟

- الآن.

- هل المكان بعيد؟

- ليس كثيرًا.. ربما نسير خمس عشرة دقيقة.

خرج الاثنان من شارع لبيب البتانوني وعبرا شارع منيل الروضة مرورا بكوبري الملك الصالح، أخذها "علي" أولًا عند محل لبيع الدجاج في الجهة الأخرى، ابتاع منه كالعادة رؤوس وأرجل الدجاج ليطعم الكلاب بها، ثم اتجها معا، ظلا سائرين في محاذاة الكوبري، إلى أن وصلا إلى المكان، وجد "علي" كلبة بنية وحيدة تنتظره، وقف ونادى باسمها قبل أن تلمحه وهو يقول "شحتة" نهضت الكلبة وركضت نحوه تتمسح به وتشمشم في الكيس الذي معه قبل أن يرفعه للأعلى، ضحكت "نور" وهي تقول:

- شحتة! من أعطاها هذا الاسم؟

قال "علي" وهو ما زال رافعًا الكيس للأعلى وشحتة متعلقة بملابسه:

- لأنها كما ترين.. تحب.. الطعام أكثر مني، وتفعل.. كذلك مع.. المارة.

ضحكت "نور" قائلة: إنه يليق بها.

أعطى "علي" بعض الطعام لشحتة، وبينما تأكله جلس هو و"نور" على الرصيف وهو يقول:

- ربما خمس.. دقائق ويأتي الآخرون.. هم يعرفون.. الموعد.

انتهى من جملته ووجدهم قادمين في جماعة، عندما رأوه ركضوا نحوه كعادتهم يحيونه باللعق والتمسح فيه، التفوا حوله وتعلقوا به، بدا وكأنه وليمة لهم فخافت "نور" وتراجعت، وضع "علي" لهم الطعام جميعا وهو يقول من بينهم:

- لا تخافي.. سأعرفك عليهم بعدما.. يتناولون الطعام.

قال ذلك وأعطاها الكيس ليفرد لهم الطعام، عندما أخذته هجمت شحتة عليها، فاستنجدت بـ"علي" وهي تقول بخوف شديد:

- علي.. علي.

ارتبك "علي" فقال متلعثما: اقذفي الكيس.

قبل أن يُكمل الجملة كانت هي قذفته، واصل بلسان ثقيل:

- لا تخافي، كانت.. تريد أن تأكل.

انشغل الكلاب في الطعام وجلس "علي" و"نور" مرة أخرى، فقال معتذرا:

- آسف.. كنت ظننتها.. قد شبعت.

ضحكت "نور" وهي تقول ملطفة للجو:

- إنها حقا اسم على مسمى.

أشار إلى فلة وهو يقول:

- تلك البيضاء اسمها فلة.. أحبها كثيرا.

- تسمي حسب أوصافهم.. حسنًا دعني أخمن.

أشارت نحو كلب لونه بين الأبيض والأصفر وقالت:

- هذا اسمه سكر.

افتعل الدهشة قائلًا: كيف عرفتِ؟

بدهشة وسعادة بالغة قالت: هل هذا اسمه حقًا؟!

- أجل.

كان اسمه شيتا، ولكنه أراد أن يسعدها وأن تسير الأمور كما رأت، فقرر أنه من الآن فصاعدا اسمه سكر، انتهى طاطا من طعامه واتجه نحو "علي" يتمسح به، فقال وهو يمسح على رأسه:

- هذا اسمه طاطا.. أشرسهم، دائمًا ما.. يجلب لنفسه المتاعب بعراكه.

- يبدو طيبًا.

ضحك "علي" وقال وهو ما زال يمسح على رأس طاطا:

- ليس كثيرًا.

- إذن اسم طاطا لا يليق به.

قالت ذلك وجاء بقية الكلاب نحو "علي"، فقال:

- لا تخافي ليسوا مؤذين.

صمت قليلا وواصل يمط الأحرف:

- امسحي.. على رؤوسهم سوف.. يحبونك.

وضعت يدها على رأس فلة وهي مترددة، كانت تمدها وتسحبها، حتى استقرت وظلت تمسح على رأسها، فقالت مبتسمة:

- إنهم محظوظون بك.

كان "علي" يوزع اهتمامه على جميع الكلاب حوله وهو يقول مبتسمًا:

- بل أنا المحظوظ بهم.

*****

وهما عائدان في الطريق، كانت "نور" تريد أن تسأله عن أشياء كثيرة عنه، كأين كنت تعيش ومع من وأين أبوك وأمك، وهل لك إخوة أم لا، كانت بالأحرى تريد أن تعرف قصته، ذلك الشعور الذي كانت تكنه نحوه ولا تفهمه، الآن فهمته، فقد أعجبت به، لفتتها حنيته، لم تعتد أن تجد كل هذا الكم من الحنان في رجل، شعرت أنه ملاك أكثر من كونه إنسانًا، لم تعرف كيف تصوغ الأسئلة فقالت في محاولة يائسة:

- منذ متى وأنت تعيش مع جدي؟

- ربما أكثر.. من أسبوعين.

- كيف تعرفتا؟

لم يعرف "علي" ماذا يقول، ظل صامتًا وقتًا طويلًا، حتى قال مراوغًا جملة "هاشم" التي قالها له في البداية:

- أشعر أن الله وضعنا في طريق واحد.

تجاهلت "نور" فضولها وقالت بحزن:

- إن صحة جدي تسوء.. أريد أن أخبر أمي.

- لا.

قالها "علي" سريعًا، فقالت "نور" باستغراب:

- لِمَ؟

صمت يفكر ثم قال:

- يعرف أنها مشغولة.

قال ذلك وانتهى الحديث بينهما، لم يجد شيئا ليقوله ولا هي، فأكمل الاثنان سيرهما صامتين، بعدما كانا سعيدين لأنهما معًا.. سيرة "هاشم" أحزنتهما، كل منهما كان يترقب الأيام القادمة بخوف ورجاء.

"نور" كانت ترى أن جدها يبدو جليًا أنه في أيامه الأخيرة، ولكنها كانت تنتظر معجزة لتشفيه، أما "علي" رغم أنه كان معه من البداية لكونه يحتضر، ولكنه بعدما أحبه نسي هذا الأمر، لم يكن يعد نفسه لهذا اليوم ولا يتصوره، صحيح أنه يعرفه منذ أيام قليلة، ولكنه في هذه الأيام علمه معنى الحياة.

*****

عاد الاثنان للبيت، كانت الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، وكان "هاشم" ما زال نائمًا، فقالت "نور" فور دخولهما:

- أحتاج أن آخذ حمامًا.

صمتت قليلًا وواصلت:

- وأنت أيضًا، فقد حمموك بلعابهم.

- معك حق.

- حسنا ادخل أنت الآن.. وأنا سوف أوقظ جدي لأطعمه.

كان "علي" قد جلب له معه "زبادي" أخذتها "نور" منه وعزمت على أن توقظ جدها، ولكن "علي" اعترض قائلا:

- دعيه يستيقظ وحده.. هو يحب ذلك.

قال ذلك ودخل غرفته أخذ ملابسه واتجه نحو دورة المياه ليتحمم، لم تعرف "نور" ماذا تفعل في هذا الوقت، فدخلت ألقت

على جدها نظرة، رثت لحاله، كان نائمًا كالمومياء التي لا حياة فيها، فخرجت للصالة مرة أخرى، تذكرت أنها بالأمس لم تنظف حجرة "علي"، فعزمت على تنظيفها، دخلت وهي تدور بعينيها تكتشفها، كانت هادئة مثله، رغم أنها كانت حجرة خالها في الأساس إلا أنها شعرت أنها تشبه "علي" وتليق به، غرفة زيتية اللون بها خزانة مكونة من ضرفتين وسرير صغير جواره كومود، وستارة بيضاء تغطي النافذة، وعليقة ملابس خلف الباب.

دارت بنظرها مرة أخرى وهي تفكر من أين تبدأ النظافة، السرير يحتاج إلى تغيير كسوته والستارة تحتاج إلى الغسيل وبالطبع الغبار يغطي الأسطح، لفت نظرها على الكومود الرواية والدفتر، فقد أخبرها من قبل أنه لم يذهب للمدرسة، هل يستطيع الكتابة والقراءة؟ فرت أصفح الرواية ثم أخذت الدفتر تفره وجدت شرح "هاشم" له، فرت مرة أخرى فوجدت الخطاب الذي كان قد كتبه إلى "الله" قرأته، توقفت عند جملة "واليوم سوف تأتي نور.. التي بعثت فيَّ الحياة كما كان النبي عيسى يُحيي الموتى، هذا أكثر من أحلامي." ضحكت ضحكة خفيفة تشي بالسعادة الممزوجة بالدهشة، إنه يحبها؟!

ما زالت لم تفهم الصور البلاغية، ولكن الجملة أعجبتها، "علي" أيضًا لولا شرح "هاشم" له معجزات النبي عيسى لم يكن ليستطيع أن يكتب جملة مثلها، فكرت أنها لابد أن تخرج الآن من الغرفة، تراجعت عن فكرة تنظيفها، لا ينبغي أن يعرف أنها رأت ما كتب، فخرجت للشرفة، عقلها كان يضج بالأفكار، ورغم أن أشعة شمس يونيو حادة لكنها لم تكن تشعر بها، متى أحبها فقد كتب هذا الكلام قبل أن تأتي هي، هل أحبها منذ اللقاء الأول في بيتهم؟

لم تكن تعرف أن إنسانًا هشًا مثله يمكن أن يقع في الحب من فعل بسيط جدا، كأن تعامله فتاة برقة أو فقط تسأله كيف حالك، فما بالك بها وهي التي دافعت عنه أمام أخيها وآنست غربته بينهم.

*****

الثالثة مساء

كانت "نور" تتفقد جدها من حين لآخر وتراقب تنفسه، هذه المرة وجدته مستيقظًا يحدق في سقف الغرفة.. فذهبت للمطبخ وعادت جلست بشماله وفي يدها كوب "الزبادي" والملعقة، وضعت وسادة خلف ظهره وجاء "علي" يسنده معها وجلس في الناحية الأخرى، سألهما "هاشم" بصوت يخالطه الوهن:

- هل ذهبتما عند الكلاب؟

أجابت "نور": أجل.. إنهم يحبون "علي" كثيرًا.

رد "هاشم" مبتسمًا:

- الإنسان الطيب تحبه جميع الكائنات.

ابتسم "علي".. كان هذا رده في كثير من الأحيان.

بينما نور ألحت على جدها كثيرًا ليأكل كأنه طفل، شعر هو بذلك فرضخ لإلحاحها وهو يقول ساخرًا من حاله:

- تلك الحياة!

قبل أن يواصل، قالت: ما بها؟

- أشعر أنني أصبحت طفلا.

قالت وهي توجه الملعقة نحو فمه:

- ستعود أقوى من الأول.

بعدما تناول ما في المعلقة، لم يستطع أن يحبس الكلام في صدره فقال متهكمًا:

- لن أعود كما كنت أبدًا.. الحياة لا تُمنح سوى مرة واحدة، لعل هذا ما يميزها ويجعلها كالمغامرة.

وهي تواصل إطعامه قال:

- تخيلي أن الحياة تمنح أكثر من مرة! هل حينها كنا لن نكرر أخطاءنا السابقة؟!

صمت قليلًا وواصل كأنما يرد على نفسه:

- لا، إذا كان عندنا الفرصة لإعادة أمر ما لنتفادى الخطأ فذلك سيجعل حياتنا كلها عبارة عن سلسلة متواصلة من الأخطاء ولا معنى لها.

كان هذا الحديث مملًا بالنسبة لها، فقالت:

- ستعود أقوى مما كنت، صدقني.

لم يرد هذه المرة ماذا يقول! أي قوة سيعود لها وهو ينتهي، زمن المعجزات قد ولى والمسيح كما قال ليس بيننا ليبرئه من المرض الذي غزا جسده وحوله لمستوطنات..

تفاقم الاكتئاب عند "هاشم"، أصبح حادًا، كعرض جانبي للاحتضار، في هذا اليوم لم يفارق سريره.. إلا عند قضاء حاجته، أكل عليه وأدى فرائضه عليه.

*****

في المساء عندما تركته "نور" و"علي" ليذهبا للنوم، لم ينم "علي" سريعًا، ظل يتذكر "نور" وهي تستنجد به قائلة "علي.. علي" كانت هذه المرة الأولى التي تنطق بها اسمه، فكان وقعه على أذنه جميلا بلا حدود، لأول مرة يشعر بحلاوة اسمه عندما نادته به، لم يكن يعرف أنه بهذا القدر من الجمال، كان يقول في نفسه إن كل ما تنطق به جميل حتى حرف الـ "ج" تنطقه بطريقة حلوة، باللهجة الصعيدية التي تعطش الجيم على عكس القاهريين، ولكن اسمه كان شيئًا آخر عندما قالته.. منذ ذلك اليوم أحب اسمه كثيرًا.

هذا ما يفعله الحب، أنه يحوّل الأشياء شديدة الاعتيادية إلى لوحة من الجمال.

*****

اليوم الثامن عشر

العاشرة صباحًا، استيقظ "هاشم" على نوبة هلع، هو في الأساس لم ينم جيدًا، فقد كان في حالة أرق، وألم يذهب ويعود عرقل سير نومه.

فاستيقظ بعروق تنبض وضربات قلب سريعة وضيق في التنفس وخوف رهيب.

شعر أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ظل يشهق بصوتٍ مرتفع ليلتقط أنفاسه التي تهرب، لم يستطع أن ينادي أيًا من "علي" أو "نور".

لم يشُك لحظة واحدة أنه سينجو، كان متيقنًا أنه في هذه اللحظة يموت.

تخيل نفسه وهم يغسلونه ويلفونه في الكفن، سمع مكبرات المساجد تذيع اسمه معلنة عن وفاته، رأى ابنه واقفًا يأخذ عزاءه بملامح ممتعضة ليس حزنًا عليه إنما ملل من الموقف، تذكر أنه لم يهاتفه منذ أكثر من شهر ربما لن يعرف أصلا بموته إلا بعدها بأيام، مرر هذا المشهد الكريه ورأى زوجته تفتح له ذراعيها، في هذه اللحظة سمع شهقاته "علي" الذي كان مستيقظًا منذ قليل فجاء يركض نحوه وهو يقول بتلعثم وارتباك:

- ماذا.. ماذا؟

ثقل لسانه ولم يستطع أن ينطق بأي كلمة أخرى.

فركض ليجلب له كوب ماء، أعطاه له بيد مرتعشة وأخذه "هاشم" بيد مرتعشة أيضًا، شرب قليلاً ووضع الكوب جواره فوق الكومود.

وجود "علي" طمأن "هاشم" بعض الشيء فخمدت نوبة الهلع شيئا فشيئًا حتى هدأ، فقال "علي" وهو ما زال مذعورا:

- ماذا.. حدث؟

رد "هاشم" بشفاه مرتعشة: أنا بخير.

صمت قليلاً وواصل:

- كنت أظنني أموت.. كدت أموت فعلا.

أردف ساخرًا:

- يبدو أن الموت يلاعبني.. يعرف أنني أحب التشويق.

بعدما انتهى جاءت "نور" وقد غيرت ملابسها وسرحت شعرها وهي تقول بصوت مبتهج:

- صباح الخير.

لم تكن تدري بأي شيء قد حدث، فابتسم "علي"، ورد "هاشم":

- صباح النور.. كيف حالك؟

جلست جواره وهي تقول:

- أنا بخير.. كيف حالك أنت؟

لم يرد أن يخبرها بما حدث، حمد الله أنها لم تشهد تلك الواقعة، أراد ألا تتذكره عندما يموت بهذا الموقف، لم يرد أن يترك لها ذكرى مرعبة، كل ما أراده أن تتذكر أفعاله الحنونة أو أي شيء غير لحظات الألم والمعاناة.. حتى لا تكون ذكراه تهدد سلامها النفسي.

*****

السادسة مساء بعدما غادرت الشمس قال "هاشم" لـ"علي" أن يذهب إلى استوديو داوود، ليجلب الصور التي أخذوها أول أمس ويجلب معه طعامًا للعشاء، ذهبت معه "نور" بينما هما في الطريق كان "علي" يسير بجانب السيارات لتكون "نور" في مأمن؛ فشارع المنيل مزدحم، لم يجد "علي" شيئًا يقوله، كلما يستجمع قواه ليتكلم لم يجد شيئًا، أو يخاف اللعثمة فيصمت، فتظاهر بالشرود في لافتات المحال التجارية، حتى لا يكون صامتا بلا سبب، فجاءت سيارة سريعة من جواره كانت ستصدمه فجذبته "نور" من يده، وقالت:

- احذر.. كانت ستصدمك.

انتبهت أن يده ما زالت في يدها فتركتها وهي تقول:

- نحن في أوج الصيف ويدك باردة!

لم يعرف "علي" ماذا يقول، فواصلت "نور":

- أتعرف ما معنى أن تكون يدك باردة؟

- لا.

- هذا يعني أن قلبك دافئ.

ضحك قائلًا:

- من أخبرك هذا؟

رفعت كتفيها وهي تقول:

- أعتقد أن الجميع يعلم ذلك.

أومأ "علي" قائلًا:

- يفوتني من.. الدنيا.. أشياء كثيرة.

انتظرته "نور" وقتًا كافيا حتى أنهى جملته، فقالت:

- نحن ما زلنا صغارًا.. أمامك وقت لتتعلم.

بزهو قال:

- لقد تعلمت القراءة والكتابة.

- حقا؟

- ليس بإتقان، ولكني.. تعلمت.. جدي "هاشم" علمني.

- هذا جيد.

لم يرد "علي" بعد ذلك وأكملا سيرهما صامتين، حتى دخلا الأستوديو، أعطى "علي" للموظف الإيصال دون أن يتكلم فنظر الموظف أيضًا صامتًا في التاريخ المدون به ثم جلب لهم بعض الصور التي أخذت في هذا اليوم، لم تكن الصور العائلية كثيرة كان أغلبها صورًا شخصية، فالتكنولوجيا قضت على هذه العادة، لذا وجدا الصور بعد بحثٍ قليل، بعدما خرج الاثنان من الأستوديو أخذتها "نور" لتراها بشكل جيد، نظرت لـ"علي" ثم قالت:

- تبدو في الحقيقة أجمل.

كان يريد أن يقول لها هو ذلك، فقد كانت في الحقيقة تبدو أجمل بكثير من الصور، لم تعجبه المثالية التي تبديها الصور كتفتيح في درجة البشرة ونعومة الوجه وإخفاء الشامات، رأى أن الإنسان بصورته الحقيقية أجمل من صورته الفوتوغرافية.

وكان بوجه "نور" شامة فوق حاجبها الأيمن وفي أنفها اثنتان فوق بعضهما، وفي وجنتيها خمس متفرقة، كل ذلك أخفته الصور، رغم أنه كان شديد الخجل ولا ينظر لها بشكل صريح، ولكن في اختلاس نظراته لها حفظ كل هذا، فقد كان أحيانًا يتخيل أنه يُقَبل تلك الشامات، كما يليق بفتى أضحى رجلاً.

واصلت "نور" حديثها وقالت:

- انظر كيف أن جدي "هاشم" يبدو مريضًا جدًا؟

صمتت قليلًا وأكملت بصوت حزين:

- أخاف عليه كثيرًا.

- وأنا أيضًا.

بنفس النبرة الحزينة قالها "علي" وهو يفكر فيما حدث صباحًا، تخيل ماذا لو مات! ماذا كان سيفعل؟

الشعور الذي كان يتجاهله وخائفًا أن يصرح به لنفسه أن "هاشم" ينتهي حقا قد واجهه هذا الصباح.

لم يختبر فكرة الموت مع أحد قريب منه من قبل، لم يعرف ما كنهه! كان يرى جنازات أحيانًا ويرى ذوي الميت وهم يبكون وينتحبون خلفه، لذا يعرف أن الموت شيء شديد القسوة، لم يتصور نفسه في يوم من الأيام مثلهم، لم يكن له أحد يرثيه، بل كان يتساءل: عندما أموت من سيسير خلفي باكيا؟ انقلبت المعادلة وأصبح خائفًا من هذا اليوم الوشيك.

كان يريد أن يخبرها كيف أنه مرعوب، والقلق يفترسه مخافة من القادم، ولكنه آثر الصمت.

*****

في هذا الوقت كان "هاشم" ممددًا على سريره في الظلام، كعادته يسترجع حياته الماضية بحسرة، مرت رتيبة خالية من الجمال والحب والذكريات..

كان كل يوم في شأن مختلف، يوم يتقبل مصيره ويستسلم للموت، ويوم ينقم ويريد لو يتشبث في الحياة بأظافره وأسنانه، ليعيد حياته بمنظور آخر..

ما أحزنه أنه في السابق لم يكن يشعر بالوجود بهذا الشكل المكثف، أصبح كل شيء له قيمة ومعنى..

الوقت، الحديث مع "علي" وحفيدته، اللحظات التي لا ألم فيها، النوم بعمق من شدة التعب، الحياة ممتعة رغم كل شيء.. هذا ما أدركه متأخرا.

كان يمكن أن يصنع كثيرًا من الذكريات الجميلة، ولكنه لم ينظر إلى النهاية، كان ينظر تحت قدميه وحسب، لم يختلس لحظات من الجمال والحب تكفيه في آخر أيامه.

ضرب بيده الضعيفة مرتبة السرير، محدثًا نفسه أن كل شيء انتهى، لِم أبك على اللبن المسكوب؟!

آلمته عظام يده جراء ضربته الضعيفة التي كانت بكل قوته، انسابت دموعه لقلة حيلته، لا انتظار أشد قسوة من انتظار الموت.. ظل يردد "لا حول ولا قوة إلا بالله" والدموع تهطل من عينيه، لم تكن آلامه الجسدية شديدة، ولكن شعور انتظار الموت كان يؤلمه أكثر..

أراد أن ينتهي كل هذا.. سيموت؟! إذن يموت الآن وينتهي الأمر! لا مزيد من الانتظار المرعب، سوف يقضي عليه القلق لا السرطان..

لمعت في رأسه فكرة.. أن ينهي هو كل شيء، لم يكن يريد أن ينتظر أكثر من ذلك، ثمانية عشر يومًا ينتظر، هذا كثير وفوق طاقة احتماله، سوف ينهي كل شيء الآن.

كان في حالة سخط وغضب شديدة، تذكر المحكوم عليهم بالإعدام، أشفق عليهم، انتظار الإعدام أسوأ من الموت، انتظارهم عقاب آخر، بصوت مسموع وغاضب قال "ولكنهم فعلوا جُرمًا ما فكان هذا جزاءهم أما أنا ماذا فعلت يارب لكي أعاقب بهذه القسوة؟

لم أكن من المفسدين في الأرض.. لم أنهِ حياة أحد!"

سأل الله كأنه شخص أمامه يحدثه "ماذا فعلت.. أخبرني ماذا فعلت لكي أنال عقاب المجرمين هذا وأنتظر مثلهم الموت؟"

لم يكن بهذه الحالة العصبية من قبل، كان بطبعه هادئًا، انتبه لما يقوله، لم يدر كيف جرى هذا الكلام الذي به شيء من الكفر على لسانه! لام نفسه وشعر بالذنب، ظل يستغفر ودموعه ما زالت تهطل، أراد أن يقتل نفسه وينهي كل هذا، غمغم قائلًا "أنت تعرف يا رب أنني مضطر.. إنك رحيم لا يرضيك عذابي، اغفر لي وارحمني".

كانت فكرة قتل نفسه مهيمنة على كل أفكاره الأخرى، فكر بماذا يقتل نفسه بدون ألم؟ لقد اختبر آلامًا كثيرة فكفى!

جاءت في رأسه فكرة أن يبتلع شريط حبوب، ويموت بجرعة زائدة تسبب له حالة تسمم دوائي، أراد أن ينهض ليجلب الماء وشريط الحبوب، ولكنه عجز عن ذلك، خارت قواه تماما، كان لابد أن يتعكز على شيء حتى ينهض، ظل يتحسس جواره يبحث عن عكازه.

*****

عاد "علي" و"نور" بعد ساعة ومعهما طعام العشاء والصور لينتشلا "هاشم" من أفكاره البائسة التي تحاصره وتستفرد به كلما كان وحيدًا، دخل الاثنان عند "هاشم" وأضاءت "نور" المصباح فوجداه يبحث عن عكازه، قال "علي":

- تريد شيئًا؟

ابتسم كأنه لم يكن يريد قتل نفسه قبل قليل، وقال:

- جلبتما الصور؟

جلست "نور" جواره ومن الناحية الأخرى "علي" كعادتهما، أسند الاثنان ظهره ورأسه على الوسادة خلف ظهره وأخذت "نور" الصور من "علي"، فتحت المظروف وقالت وهي تريها لـ"هاشم":

- انظر أنا و"علي" يتوسطنا القمر.

ضحك "هاشم" قائلًا بسخريته المعتادة من حاله:

- يبدو أنه قمر في حالة خسوف.

في هذه اللحظة رن هاتفه، كانت "وردة"، شعر باهتزازه فجعل "نور" تجلبه ففتحت المكالمة تحدثت معها ثلاث دقائق وأعطت الهاتف لـ"هاشم" تحدث معها وضحك كثيرًا، لام "هاشم" نفسه كيف يقتل نفسه ويترك كل هذا الحب والجمال، لقد كان مخطئًا، حمد الله أنهما جاءا في الوقت المناسب وظل يستغفر الله كثيرا ويطلب منه أن يرحمه ويعفو عنه، لا شيء في الدنيا يعدل مكالمة مثل تلك مع ابنته نور عينيه وسويداء قلبه، لا شيء يعدل هذه الجلسة مع "علي" وحفيدته.

في هذا الوقت قرر أنه سيتمسك بكل دقيقة في حياته حتى في لحظات خروج روحه سيظل يقاوم وينازع، الحياة تستحق رغم كل شيء.

ذلك جعله يفكر أن يأخذ فحوصاته يعرضها على طبيب آخر ويسير في طريق العلاج لعل جلسة كيماوي أو إشعاع أو عملية جراحية تطيل عمره قليلا، ولكنه تذكر قول الطبيب "أي تدخل جراحي أو جلسات علاج ستعجل بوفاته أكثر فكل وظائفه الحيوية ضعيفة جدا" و"هاشم" الآن لا يريد أن يموت سريعا، بل يريد لو

يربح أيامًا أو حتى ساعات أو دقائق فوق عمره، كان كلام الطبيب قاسيا جدا بكلمات قليلة قضى على أمله في كل شيء.

أكمل حديثه مع "علي" و"نور" وقص لهما حكايات طريفة حدثت معه في الماضي، تفاعل الاثنان معها وقصا حكايات مماثلة، وجود "علي" و"نور" هوّن على "هاشم" كثيرا وأنسياه لبعض الوقت مواجهة الموت، ووجود "نور" هوّن على "علي" مواجهة موت "هاشم".

إن قدرة البشر على تحمل المعاناة تتضاعف عند وجود رفاق.

*****

اليوم التاسع عشر

لم يكن "هاشم" قد نام، أصبح لا يستطيع النوم، فقط ممد على السرير غارقًا في الأفكار التي لا تتوقف، كانت الساعة التاسعة والنصف صباحًا ومنذ ساعتين وهو يريد أن يدخل الحمام ولم يستطع النهوض وحده، ففور شعوره باستيقاظ "علي" نادى عليه، جاءه وما زال أثر النوم على وجهه، فقال "هاشم":

- صباح الخير.

- صباح النور.. تريد شيئًا؟

- أريد الدخول للحمام.. ساعدني على النهوض.

ساعده "علي"، أخذ ذراعه ليحيط بها كتفيه وطوّق هو ظهر "هاشم" بذراعه، وجلب له العكاز وسار معه ببطء إلى الحمام، أثناء سيرهما قال "هاشم":

- هذا العكاز ساعدني كثيرًا، لقد أدى مهمته بامتياز.. كل كلمات الشكر لا تفيك يا "علي".

صمت قليلاً يلتقط أنفاسه وأكمل:

- الآن أريد مشاية، ربما أيام وأحتاج إلى كرسي متحرك.. ولكن لنكن في المشاية الآن.

- كيف هي المشاية؟

- كالعكاز، ولكنها بأربعة أرجل.. أستطيع أن أسير بها وحدي دون مساعدتك.

شعر "علي" بمغصٍ في بطنه وازدادت ضربات قلبه وقال بتلعثم وهو عاقد حاجبيه:

- هل صدر.. شيء.. مني؟

- كلا، ولكني منذ ساعتين وأنا أريد دخول الحمام وكنت أنت نائمًا، فتلك ستساعدني في هذه المواقف.

هدأت جوارح "علي" وأومأ برأسه متفهمًا، لم يكن يحدث شيء لذلك كله، فواصل "هاشم":

- أريدك أن تجلب لي واحدة اليوم، ستجدها في شارع قصر العيني.. وأريد أن تجلب لي منومًا أيضًا.

- حسنا.

دخلا الحمام، أراد "علي" أن يترك "هاشم" لينتظره بالخارج كما كان يفعل، ولكنه اليوم شعر أنه إن تركه فسوف يختل توازنه ويسقط، كان التوتر بلغ منه مبلغًا، لم يكن يدري ماذا يفعل، فقال "هاشم":

- فك لي زر البنطال وأجلسني على المرحاض.

أثناء انشغال "علي" بفك الزر سقطت دمعة من عين "هاشم" على ذراعه، فنظر له قائلًا:

- هل.. هناك.. شيء؟

مسح "هاشم" عينيه وقال: لا شيء.. لا تهتم.

لم يكن من السهل على "هاشم" أو أي إنسان هذا الموقف، بداية من أنه كان يريد الدخول للحمام ولم يستطع وظل منتظرًا "علي" أن يستيقظ حتى دخوله معه الحمام وفك الزر ومساعدته له بشكل

يخترق خصوصية جسده، لم يكن هناك أسوأ من خيانة الصحة، تعجب من حاله سابقًا وهو في كامل صحته عندما كان يتذمر من أسبابٍ تافهة؛ فشل، خسارة أموال، خذلان حبيبة أو حتى صديق، كل شيء كان يتذمر من أجله أصبح الآن تافهًا لو كان يعلم ما ستؤول إليه حياته ما كان ليتذمر دقيقة واحدة، فأقصى طموحٍ له الآن أن يكون في كامل عافيته، ولكنه لن يتحقق أبدًا، قال بصوت داخلي لنفسه "كل ما دون الصحة هيّن".

*****

أخذ "علي" المال اللازم وذهب ليطعم الكلاب ومن ثم يذهب لشارع قصر العيني، عبر الشارع وكوبري الملك الصالح، جلب الطعام واتجه إلى كلابه أطعمها وجلس معها بعض الوقت ثم استقل أول حافلة في اتجاه التحرير، كما وصف له "هاشم"، لم تذهب "نور" معه هذه المرة، لتبقى مع جدها إذا أراد شيئًا بما أنه مستيقظ..

طلب "هاشم" من "نور" أن تصحبه إلى الشرفة، طوقت كتفيها بذراعه وبصعوبة حاولت ألا تسقط معه إذ كان حمله ثقيلًا عليها وحدها، ولكنها في النهاية استطاعت أن تدخله وتجلسه على مقعد وثير وجلست جواره تلتقط أنفاسها، لاحظ "هاشم" أنها بذلت جهدًا كبيرًا فقال:

- لم أكن أعرف أني سأتعبك هكذا.. أنا آسف.

عقدت "نور" حاجبيها وهي تقول بمحبة صادقة:

- جدي! لا تقل ذلك.. إذا أردت عيني سأعطيها لك.

ربت على ظهرها بحب قائلاً: دائمًا ما أرى "وردة" فيك.

- لقد بلغ منك المرض كثيرًا.. سوف أخبرها، لابد أن أخبرها.

- هل علمها سيخفف عني؟

- لا، ولكن..

قاطعها قائلاً:

- لن يخفف عني، ولكنه سيؤلمها.. إذن من الحكمة ألا تعرف.

غيّر الموضوع قائلاً:

- هنا كانت تجلس جدتك وهي تحملك.. ليتها كانت حية لترى كم كبرتِ وكم أصبحتِ جميلة.

- لولا الصور لم أكن لأتذكرها جيدًا.

- كنتِ ست سنوات حين ماتت.. كانت تحبك كثيرًا، إذ كنتِ أول حفيدة لها، ولكن اللعنة على المسافات لم نكن لنراكم كثيرًا.

- لما لم تعيشوا في البلد جوارنا؟

- الأقدار تأخذنا ولا نأخذها.. ولكن لو كنت أعلم أن العيش معك حلوًا لتلك الدرجة، كنت أول شيء فعلته حين ماتت جدتك، هو أن أنقل حياتي عندكم وأعيش جواركم في البلد.

ابتسمت "نور" بينما واصل "هاشم" متحسرًا:

- ولكني كنت غبيًا.

- إنك قلت الأقدار تأخذنا ولا نأخذها.. ومع ذلك يمكنك أن تحقق ذلك وتبيع هذا المنزل وتعود معي للبلدة.

ضحك قائلًا: ليت الحياة بتلك البساطة.

تقلصت ابتسامته وهو يقول:

- فات أوان كل شيء يا نور.

- ما زال هناك متسع لكل شيء ما دُمنا أحياء.

أعجبته الجملة وزادته إعجابًا بحفيدته، متى كبرت هكذا ومن أين تعلمت تلك الفلسفة، وما هذا الكم من الدفء والحنان؟ إن خمسة أيام فقط معها زادته تعلقًا بالحياة التي كان يكرهها في الماضي، لم يكن يكره الحياة بذاتها، بل كان يكره وحدته.

*****

بعدما جلب "علي" المشاية، حملها ودخل إحدى الصيدليات ليجلب المنوم، كانت مزدحمة وكان يريد أن يتحدث مع الطبيب الصيدلي بشأن "هاشم"، لم يمرر "علي" سقوط دموع "هاشم" على ذراعه مرور الكرام، لابد أن يفعل له شيئًا كعادته، هذه هي لغة حبه، أن يفعل شيئًا بإمكانه تحسين الوضع ولو قليلاً.

انتظر كثيرًا حتى تخلو الصيدلية من الناس، كان يخشى أن يتحدث أمامهم بلسانه الثقيل، فيتعجله أحدهم بأسلوب سيء يؤذيه، المؤذون أكثر من الطيبين، هذا ما كان راسخًا في ذهنه، ولكن الازدحام لم يتوقف كلما خرج أحدهم دخل آخر، ظل هكذا أكثر من خمس عشرة دقيقة، فأشار له أحد الأطباء وهو يقول:

- ماذا تريد؟

صمت، لم يعرف ماذا يقول، فكرر الطبيب سؤاله بصوت أعلى، فقال "علي" مرتبكًا بحروف ممطوطة:

- بعدما.. يغادر.. الناس.

فذهب له الطبيب ووقف معه في جانب يبعد عن الواقفين وقال بصوت منخفض قليلاً:

- ماذا تريد؟

- أريد.. منومًا.

- لمن؟

حاول استجماع قواه وهو يقول ببطء كلمات ليست مرتبة:

- جدي.. مريض.. قال له.. الطبيب إنه سيموت.. لم يستطع.. النوم.. ويبكي.. أيضًا.. هل هناك.. عقار.. يجعله.. لا يبكي؟

فهم الطبيب أنه يعاني من اكتئاب حاد بما أنه مقبل على الموت.

فأعطاه عقارين من مضادات الاكتئاب والقلق، يقللان نوبات الهلع ويساعدان على النوم وقال:

- سيجعلانه بحالٍ أفضل.

*****

بدأت أشعة الشمس تطول "هاشم" و"نور"، فقال لها:

- هيا لندخل.

ساعدته "نور" بمجهود كبير كما أدخلته، صحبته حتى سريره، جلس عليه ووضعت "نور" الوسادة خلفه ورفعت ساقيه وهي تديره ليسند ظهره على الوسادة، بعدما أجلسته في وضعية مريحة، تركته وعادت معها علبة عصير، ألحت عليه ليشربها، شرب نصفها وحتى يتخلص من إلحاحها قال:

- اتركيني لأنام نصف ساعة.

وتظاهر بأنه سوف ينام، كان يريد لو أن يذوق طعم النوم حقًا حتى ولو لخمس دقائق، ولكنه لم يستطع.

*****

تركته "نور" ولم تعلم ماذا ستفعل لتمرر الوقت، كانت تشعر بالملل، فهناك في بلدتها كانت أغلب يومها تقضيه في الشارع تلهو وتلعب مع صديقاتها، اشتاقت لهن، تريد أن تحكي لهن عن علي ومشاعرها نحوه، واشتاقت أيضًا لأمها وأبيها وإخوتها، لم تسترسل في الحنين أو وجهته في مكان آخر إذ شعرت أنها تفتقد "علي"، فدخلت حجرته، أمسكت الدفتر مرة أخرى قرأت ما كتبه وهي مبتسمة، فأرادت أن تكتب مثله لتتسلى، عازمة على أن تمزق الصفحة بعدما تكتبها، كان في صدرها أشياء كثيرة تريد أن تتخلص منها، كأن الكلمات تتزاحم بداخلها وتريد أن تخرج، فأخذت القلم وكتبت بخط جميل لا يليق بسنها:

"كيف حالك يا علي؟ هل أنا أحبك؟ لا أعرف!

أنا ما زلت صغيرة، ولكن لا أنكر أنني أكون سعيدة ونحن معًا، خاصة عندما نسير في الطرقات جوار بعضنا البعض، ربما أنا معجبة بك، ولكنك لا تدري كم أنت إنسان رائع، إنك لا تعرف مزاياك الكثيرة وفقط تنظر نحو عيوبك القليلة التي لا يد لك فيها، هذا الثقل الذي في لسانك وتكرهه أنا أحبه.. حقًا أحبه، وخجلك الزائد أنا أعتبره ميزة، لابد للإنسان أن يتحلى بالإحساس حتى لا يجرح غيره، وأنت هكذا، فلا تحاول تغيير طبعك أو تضيق به ذرعًا، أتمنى أن تراك بعيني لتدرك كم أنت جميل.

ملحوظة: "أنا أعرف أن سكر لم يكن اسمه سكر، وأنك كنت تريد إسعادي، عمومًا لقد حققت هذا الهدف بالفعل، وكنت سعيدة ليس لأنني ظننت أن اسمه كما خمنت أنا، ولكن لأنك...

عند تلك الكلمة سمعت صوت جدها وهو يتقيأ، فتركت القلم والدفتر وركضت نحوه في الحال، جلبت له الوعاء المخصص للقيء، دخل "هاشم" في نوبة قيء طويلة، بعدما أفرغ ما في بطنه ظل يتقيأ عصارة المعدة صفراء اللون شديدة المرارة حتى عندما استنفدها كلها ظل ينتفض كأنه يريد تقيؤ شيء ليس موجودًا في جوفه، كان يشعر أن أحشاءه ستخرج من فمه، رأت "نور" هذه الحالة فشعرت بالذعر وظلت تبكي وهي تربت على ظهره وتقول:

- ما بك يا جدي.. ما بك؟

كانت تحسبه يموت، في هذه اللحظة دخل "علي" الغرفة حاملاً المشاية وكيس العلاج، صُرع هو الآخر من منظريهما، انعقد لسانه، وضع ما في يده على الأرض وأخذ يربت على ظهر "هاشم" مثل "نور"، حتى هدأ، ظلت انتفاضة أحشائه تتلاشى شيئًا بشيء حتى صار يرتجف فقط، جلبت "نور" مناديل ورقية ومسحت حول فمه وأنفه وقميصه وقالت:

- لا بد أن تذهب للطبيب.

لم يتكلم "هاشم"؛ لم يكن به حيل، فواصلت "نور":

- الآن.. سوف نذهب الآن، سنساعدك أنا و"علي".

أومأ برأسه يمينًا ويسارًا وهو يقول بإعياء:

- لا داعي.. أصبحت بخير.

قال "علي":

- جلبت.. لك.. دواء.. سيساعدك.. كثيرا.

جلبت "نور" كوب الماء دون أن يطلب منها أحد وجاءت ناولته لـ"هاشم" وأعطاه "علي" الحبوب، كان خائفًا من أن يجعله الماء يتقيأ ولكنه سمى الله وأخذها، ظلا معه صامتين، وبعد ثلث ساعة شعر "هاشم" بالنعاس إثر الدواء فقال:

- أصبحت بخير.. والآن سوف أنام.

نهضت "نور" دثرته بغطاء خفيف وطبعت قبلة على جبينه وهي تقول:

- شفاك الله.

ثم غادرت هي و"علي" الغرفة بعدما أطفأت الكهرباء.

*****

خرجت "نور" من الغرفة وهي تبكي ومعها وعاء القيء وقالت:

- لا بد أن أبلغ أمي.

لم يعرف "علي" بماذا يرد، كان حزينًا مثلها، أخذت "نور" وعاء القيء ودخلت الحمام لتنظفه، ودخل "علي" غرفته لينفرد بحزنه ومخاوفه من القادم، وجد دفتره مفتوحًا وجواره القلم، ابتلع ريقه وازدادت ضربات قلبه خشية أن تكون "نور" قرأت ما قد كتب، ولكنه تفاجأ بما كتبته، فقد نسيت أمره تمامًا، ما حدث لجدها أربكها وأنساها كل شيء، قرأ "علي" الكلمات غير مصدق، هل "نور" كتبت فيه ذلك حقًا؟ ما زال غير مصدق أنه من الممكن أن يحبه أحد، كان النص جميلًا بلا حدود، أعجبه خطها وأسلوب كتابتها، لو

كانت هناك حسنات كثيرة لتعلم القراءة والكتابة فقراءة نص مثل ذلك تكفي، لو أفنى المرء عمره في تعلم القراءة والكتابة في سبيل قراءة نص مثل ذلك لم يكن كثيرًا، فقد ذكرت عيوبه التي يكرهها وقالت إنها تحبها، هذه دعوة صريحة لحب ذاته وتقديرها واعتراف من "نور" بأنها تحبه، تقسو الأقدار وترحمُ، كل عسر معه يسر كما أخبرنا الله، بينما "هاشم" ينتهي جاء خطاب "نور" لينقذه ويجعله ثابتًا ولا يميل، رغم سعادته المشوبة بالحزن انتبه لسؤال مُلح "ماذا بعد؟" أصبح في مشكلة عويصة كيف سينظر في وجه "نور" بعد قراءة هذه الكلمات، تمنى لو لم تكتبها، شعر أنه في ورطة، فجلس في الغرفة مقررًا أنه لن يخرج إلا عندما تنام "نور"، أو يحتاجه "هاشم".

*****

اليوم العشرون

استيقظ "هاشم" بعدما نام أمس بفعل الدواء الرابعة مساء، نام بعمق وبلا تفكير ست عشرة ساعة متواصلة، لأول مرة ينام هذه المدة، عرف ذلك عندما أخذ هاتفه من تحت الوسادة نظر في ساعته فوجدها الثامنة صباحًا، قطع شوطًا كبيرًا في النوم.. النوم قاهر الأحزان والخيبات والمرض، إنه كمخدر طبيعي جعله الله للإنسان لكيلا يجن.

انتبه أنه فاتته كل صلوات أمس، وبما أنه على موعد قريب جدا بلقاء الله فلا ينبغي أن يقصر في شيء مثل الصلاة، قرر أنه عندما يستيقظ "علي" سيجعله يجلب له حجرًا ليتيمم عليه ويصلي كل صلواته وهو في مكانه، كان هناك ألم شديد في معدته لم يشعر به سوى في هذه اللحظة، كان الألم رهيبًا كأن معدته متيبسة أضحت كحجر في جوفه، نظر حوله وبفعل الضوء المتسلل من خلف الستار استطاع أن يرى "نور" وهي مفترشة الأرض ونائمة لتكون جواره إذا أراد شيئًا، وواضعة فوق الكومود زجاجة مياه وعلب عصير والحبوب التي جلبها "علي"..

رغم ألمه ابتسم، رأى أيضًا المشاية جوار السرير، فجذبها بيده وحاول أن ينهض ويسير بها نحو الحمام، ولكنه لم يستطع النهوض فقد ضمرت عضلاته، كان يحتاج إلى شخص فقط يرفعه، بعد دقائق من محاولاته استيقظت "نور" إثر صوت المشاية وهي تدبدب في الأرض، مسحت عينيها وقالت:

- أتريد شيئًا يا جدي؟

- لم أكن أريد إيقاظك.

- أنا هنا لتوقظني كلما أردت شيئًا.

- ساعديني على النهوض.. أريد الدخول للحمام.

نهضت "نور" وأخذت بذراعيه وبمجهود كبير ساعدته على الوقوف، أمسك المشاية بقبضتي يده وحاول التوازن وقال لها:

- اتركيني.

حاول السير، كان يسير، ولكن ببطء شديد فقالت "نور":

- إذن أساعدك حتى الباب.

لم تنتظر رده وأخذت ذراعه طوقت بها كتفيها وسارت ممسكة بالمشاية بيد وهو ممسك بها بيده الأخرى..

أدخلته الحمام وأغلقت الباب خلفه بحرص حتى لا يُغلق بلسان الكالون، لكي يخرج جدها بيسر.

*****

بعدما دخل "هاشم" الحمام اتجهت "نور" نحو غرفته أخذت الهاتف واتصلت بأمها تبلغها أن جدها مريض جدا، قالت "وردة":

- من أي شيء يشتكي؟

- لا يستطيع تناول الطعام ويتقيأ كل ما يأكله، فقد الكثير من وزنه وأصبح يسير بصعوبة.. السيئ في الأمر أنه لا يريد الذهاب إلى الطبيب.

بحزن يشوبه الغضب قالت "وردة":

- منذ متى وهو كذلك؟

بخوف وتردد قالت "نور":

- منذ جئت.

- ولما لم تخبرِيني؟

- قال لي ألا أخبرك بشيء.. وكان يضع الهاتف تحت وسادته، كنت لا أريد أن أخبرك كما أراد على أمل أن يُشفى، ولكن حالته تدهورت كثيرًا.

- حسنًا غدًا سوف نأتي أنا وأبوكِ.

أغلقت معها "نور" ووضعت الهاتف كما كان، انتبهت أنها لم تر "علي" منذ أمس، سألت نفسها أين هو مختفٍ؟ ولكنه سرعان ما تذكرت أمر الخطاب الذي كتبته في دفتره، بالتأكيد قرأه ضربت بيدها على جبهتها تلعن غباءها الذي جعلها تكتبه.

*****

في هذه اللحظات كان "هاشم" ينظر لنفسه في المرآة، برزت عظام وجهه، تغيرت ملامحه أكثر في الأيام الأخيرة، لم يستطع غسيل وجهه لو ترك المشاية سوف يختل توازنه، فوقف يلقي نظرة طويلة لنفسه في المرآة وهو يستند بمرفقيه على المشاية أمام الحوض، شعر أنه سوف يموت اليوم لا لأنه مريض ولكنه شعور أتاه واجتاح كيانه، عاش ما يقارب السبعة عقود رأى فيها أمه وزوجته وبعض معارفه قبل أن يموتوا بأيامٍ قليلة، كان يرى الموت في عيونهم، يعلم أن موعدهم قد حان فيتصرف بغرابة بالنسبة لهم يظهر حبه الشديد يتعامل بلين ورقة أكثر من طبيعته ويهيئ نفسه لفراقهم، كأنه نوع من الفراسة يملكه.

تذكر يوم شعر باقتراب الموت من أمه فرأى أن ذلك الشعور جريمة لو مات كل من في الدنيا أمه لا تموت.. كيف تموت أمه؟ طوال عمره لم تأت هذه الفكرة في رأسه أبدًا.. أمه ستعيش للأبد، هذا ما كان راسخًا في عقله.. فكذب شعوره هذا، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام، ومن حينها صدّق أن شعوره لن يخلف أبدًا، وبما أنه كان يتهيأ لفراق من يشعر بقرب الموت منهم رأى أن عليه أن يتهيأ الآن لفراق الدنيا، شعر بالسكينة والسلام، لم يكن غاضبًا كذي قبل، فقط يشعر برهبة قليلة، آمن أن الموت نهاية حتمية لتستمر الحياة، كل إنسان مهما طال عمره بالنهاية سيموت، كل الكائنات تموت ليأتي غيرها وكذلك الإنسان، لو أن الناس لا تموت كيف سيكون شكل الدنيا وبلايين البشر والكائنات يتزاحمون؟ إنها فكرة غير منطقية البتة، إن الموت جزء من الحياة، سنموت وذراتنا تتحول لأشجار وطيور، سنغيب عن الحياة، ولكننا سنحيا في ذاكرة الذين يحبوننا.

تصالح مع فكرة الموت وقَبل بها في رضا وتسليم، لم يكن ليتقبل الموت في البداية لأن الإنسان بطبيعة الحال يريد أن يكون شيئًا مذكورًا سواء بتأثير ملحوظ في العالم كالعظماء الذين تركوا وراءهم إرثًا ينبئ عنهم، أو بشيء بسيط جدا كولد يحمل اسمه، ولكن هاشم كان يفتقد هذا، فابنه أصبح لا ينتمي إليه رغم أنه يحمل اسمه ولكنه لا يشعر أن هذا من سينبئ عنه، سيموت كليا دون أن يكون شيئًا مذكورًا، ستمحو الرياح أثره وتنساه الشوارع والبيوت وأريكته الوردية ولن يبقى شيء منه غير اسم يوضع على قبره بين الموتى، كل مخاوفه تلك تبخرت في هذا اليوم، واكتفى بأن يذكره "علي" و"نور" و"وردة"، ذهب القلق والألم وحل محلهما السكينة..

في هذه اللحظات بالذات ذهب الألم من معدته وشعر بالخفة والسلام.

*****

لم تعرف "نور" ماذا تفعل فيما ورطت نفسها و"علي" به، شعرت بخجله وموقفه الآن، كان يهمها هو أكثر ما كان يهمها صورتها، فقررت أن تتعامل وكأن شيئًا لم يكن، التجاهل دائمًا حل للأشياء التي لا حل لها.

عندما يستيقظ لن تفتح سيرة الخطاب ولن تتعامل بخجلٍ يخجله، سيكون كل شيء طبيعيًا ككل يوم، ستفطر معه ويجلسان مع "هاشم"، وستعطيه مفتاح الشقة عندما يذهب لكلابه وتستقبله مبتسمة عند عودته، وتسأله عن حال شحتة وفلة وسكر وطاطا.

*****

التاسعة والنصف صباحاً

استيقظ "علي"، ظل ناظرًا لسقف الغرفة يفكر كيف سيتعامل مع "نور" مرة أخرى، لم يكن هذا فقط ما يفكر فيه، كل شيء كان يبدو له ضبابيًا، رغم أنها اعترفت له في الخطاب أنها معجبة به ولكنه ما زال غير مصدق، إذ كيف وهي فتاة حسناء ذكية كل شيء بها مكتمل حتى خطها كان منظمًا وجميلًا، وهو ثقيل اللسان ذو العرجة الخفيفة الذي لا يعرف كيف يتعامل مع الناس وليس له أهل؟

رأى أنه غير صالح لأن يحبه أحد، كل شيء سوف ينتهي بموت "هاشم"، لا يعلم ماذا سيفعل حينها، ولكن كل الذي يعلمه أنه سيعود للشارع مرة أخرى.

ظل نصف الساعة في هذا الحال، حتى سمع طرقات خفيفة على باب الغرفة ونور وهي تقول:

- "علي" هل استيقظت؟ إن جدي يريدك.

صمتت قليلًا وواصلت مرة أخرى طرقاتها وهي تخبره أن جدها يريده، فاستجمع "علي" قواه وقال مترددًا:

- حسنًا.

خرج "علي" وبعدما غسل وجهه ذهب إلى "هاشم"، كانت "نور" جالسة جواره، وقف صامتًا متحاشيًا النظر لها، فقال "هاشم":

- صباح الخير.. كيف حالك؟

- بخير.. كيف.. حالك.. أنت؟

باستشعار الكلمة قال:

- أنا جميل.

صمت قليلًا وواصل:

- أريد حجرًا حتى أتيمم عليه.

- حسنًا.

قالها "علي" وذهب لجلبها له في الحال، ثم ذهب ليطعم كلابه.

*****

قرر "هاشم" أن هذا اليوم سيمر سلسًا خفيفًا، سيصلي ويستغفر ما استطاع ويجلس مع "علي" و"نور" يتحدث معهما وسيشاهد فيلمه الكوميدي المفضل "لصوص لكن ظرفاء" كان هذا الفيلم أول فيلم يراه في السينما لذا تعلق به إذ كان بوابة دخوله عالم الأفلام، في عامه الجامعي الأول بعد سنة واحدة من النكسة كان الشعب كله يعيش حالة حزن وكآبة وسخرية من الواقع، حين عرض الفيلم اقترح عليه صديقه في السكن الجامعي أن يذهبا للسينما يقال إنها تعرض فيلمًا كوميديًا من الطراز الأول، ذهب معه ومنذ ذلك الوقت أحب السينما كثيرًا، رأى أن الأفلام كالمخدر تنسي الواقع بعض الوقت، رتب كل شيء في رأسه كأنه متيقن من موته اليوم حقًا..

ولئن فاته الماضي في العزلة والظلمة فلن يفوته هذا اليوم.

تيمم على الحجر وظل يصلي ويقرأ قرآنًا ويستغفر ويشكر الله على كل شيء منحه له في الحياة.

جلس أكثر من ثلاث ساعات، وكان "علي" ما زال بالخارج جالسًا مع كلابه يبثها مخاوفه ومشاعره، كان بحاجة لمن يفهمه ولم يجد سواها، فقد كان عنده اقتناع تام أنها تفهم كل شيء يقوله، ولكنها لم تستطع التحدث وحسب، كان يحاول الهرب من مواجهة "نور".

*****

بعد أن فرغ "هاشم" من الصلاة والدعاء، أخبر "نور" أن تأخذه للشرفة، ساعدته على الوقوف والسير حتى أجلسته على كرسيه، ظل يتطلع حوله وإلى السماء والطيور وهو مبتسم، أحس بالهواء على وجهه وبشعاع الشمس وهو يخترق مسام جلده وبصلابة الأرض تحت قدميه، أدهشته ألوان السماء والشجر وأصوات

العصافير، شعر بالحياة والوجود، بعد طول تأمل نظر نحو "نور" وقال:

- تعرفين أنني أحبك؟

ابتسمت نور قائلة:

- أعرف وأحبك أكثر.

- تعالي لأقبلك.

نهضت ومالت عليه قبلت جبهته فمسك وجهها بين يديه المرتعشة قبل وجنتها وجبهتها، وقال:

- اجلبي الصور الأخيرة لأراها.

جلبت الصور وعادت له، تفحصها مبتسمًا، رأى "علي" وابتسامته الخجول، فقال:

- أين "علي"؟

- ما زال لم يأت من عند الكلاب.

صمتت قليلًا وواصلت مترددة:

- ما قصته يا جدي وأين أهله؟

أطلق زفيرًا وهو يقول:

- علي.. إنه رحمة أرسلها الله إليّ.

واصل:

- إن قصته مأساوية، ليس له أهل، تنقل من مكان لآخر، من عند شحاذ لدار أيتام للشارع وانتهى به المطاف عندي.

قال يوصيها:

- إني لا أحمل همًّا سواه.. لا تهملوه يا "نور"، أخبري "وردة" بذلك، أكرموه ولا تسيئوا له بعد موتي.

- بعيد الشر عنك يا جدي.

- ليس الموت شرًا.. إنه انتقال لحياة أخرى وحسب، كما ننام لنصحو ليوم آخر، نموت لنحيا حياة أخرى.

- الشر هو غيابك عنا.

- ما دمتم تذكرونني فسوف أكون معكم، ربما على هيئة نسيم عليل أو لحن شجي.

استرسل قائلًا:

- اذكروني في الأعياد وعند الأفراح والأحزان، قولوا رحم الله رجلاً فهم الحياة متأخرًا.

صمت قليلاً وواصل:

- اشتقت كثيرًا لـ"وردة"، أتمنى لو أضمها الآن لقلبي وأقبل رأسها وخديها وأسمع منها كلمة أبي بصوتها العذب.

بتردد قالت "نور": أخبرك بمفاجأة؟ أمي سوف تأتي غدًا.

ابتسم قائلاً:

- لن أنتظر للغد، اجلبي لي الهاتف من تحت الوسادة.. سأحدثها.

جلبته له، وبينما "هاشم" يحدث أمها، استندت على سور الشرفة تفكر وهي تنظر للشارع والمارة، كان في قلبها قبضة تخبرها أن جدها في أيامه الأخيرة، شعرت أنه يشعر بنفسه، كل حديثه يقول

إنه يسير نحو النهاية بخطى واضحة رغم أنها عاشت معه أيامًا قليلة وقبلها كانت تراه مرة أو اثنتين في العام، ولكنها تعلقت به، شغلها مصير "علي" أيضًا وراحت تفكر به.

*****

الثالثة مساء

جاء "علي"، عرف "هاشم" و"نور" ذلك من صوت الباب، فناداه "هاشم" قال له:

- أدخلني الغرفة، هناك ملابس أحبها أريدك أن تلبسها لي.

حمله "علي" وساعدته "نور" ليقف أمام المشاية، وسار الاثنان به نحو الغرفة، اختار "هاشم" قميصًا مشجرًا كان يحبه ويرتاح به وبنطالًا بني اللون، خرجت "نور" وساعده "علي" على ارتدائهما، بعدما انتهى أشار له "هاشم" نحو عطر فوق التسريحة وقال:

- عطرني.

مسك "علي" القنينة رش عليه في أماكن متفرقة، فقال "هاشم":

- الآن أخرجني للصالة أمام التلفاز.

أخذه "علي" للصالة وأشار له "هاشم" نحو المكان الذي يريد الجلوس فيه، فعل "علي" فأخبره "هاشم" بمكان شرائط الفيديو، رغم التقدم التكنولوجي، ولكنه ما زال في عهده القديم كما تعود فلم يعتد على التكنولوجيا ولم يألفها، لم يكن معه من يعلمه فظل على الهاتف الأزرار، ويشاهد الأفلام على "الفيديو كاسيت" وكان عنده شرائط كثيرة جدا، لأفلام عربية وأجنبية، قال لـ"علي":

- ستجد بينها شريطًا يحمل اسم "لصوص لكن ظرفاء".

ظل "علي" يبحث حتى وجده وجلبه لـ"هاشم" الذي افترت شفتاه عن ابتسامة واسعة وهو يرى ثمرة جهده في تعليم "علي" القراءة والكتابة وقال:

- لقد تعلمت القراءة.. أذكرك دائمًا لا تنس أن تقرأ لي قرآنًا بعدما أموت.

ارتبك "علي" من كلمة "أموت"، ما زال يحاول أن يقصي احتمالية موته من رأسه، بعد طول صمت قال:

- لن.. تموت.

- أنا أحبك يا "علي".

ابتسم "علي" متفاجئًا، كان الرد خارج السياق، وقال:

- وأنا.. أيضًا.

شرح له "هاشم" كيف يضع الشريط ويُشغّل الفيلم، فعل "علي" كما قال، ثم جلس جواره وجلست "نور" في الناحية الأخرى، كان "علي" ما زال يحاول الهرب منها، قبل أن يبدأ الفيلم قال "هاشم":

- هذا الفيلم قديم بالنسبة لكما، ولكنكما ستحبانه.

قالت "نور":

- أنا أعرفه، خاصة الببغاء الذي يقول "حرامية".

قالت الأخيرة وهي تقلده؛ فضحك "هاشم" وواصلت "نور":

- أحبه فعلا.

بدأ الفيلم وانسجموا معه، شاهدوه في جو مليء بالدفء والحب، ضحكوا كثيرًا وسعدوا أكثر، كان "هاشم" محاطًا بهما فشعر بالسعادة لصحبتهما، ومن هنا تسرب له شعور بالحزن لأنه سيرحل عنهما عما قريب، قريب جدًا.

ولكنه قرر أن يمر اليوم بلا دراما، لن يبكي ويبكيهما معه، سيترك لهما ذكرى هذا اليوم خفيفة ودافئة، أخبرهما أنه يحبهما بلا خجل من مشاعره، كان هذا ما يريده أن يبقى في ذاكرتيهما، لا يريد أن يتذكراه بشيءٍ آخر، فقط بالحب والخفة في الحضور والغياب.

*****

التاسعة مساء

جلس "هاشم" على سجادة الصلاة بعدما تيمم وأخذ الدواء الذي جلبه "علي"، ظل يتعبد ويصلي ويدعو ويقرأ في مصحفه، ربما لو علم الناس بموعد موتهم لتحولوا لنساك وزهاد، ظل على هذا الوضع أكثر من ساعتين، حتى داهمه النوم، وأخيرًا قال لـ"علي" أن يضعه على السرير، ساعدته "نور" أيضًا، بعدما تمدد "هاشم" على سريره، قال للاثنين:

- اجلسا معي حتى أنام.

كان يقاوم النعاس الذي اقتحمه بفعل الدواء، ولكنه أراد أن يأنس بهما وقتًا آخر، مر اليوم مثاليًا كما أراد، وكان لا يشكو ألمًا كأنما برأ من مرضه، وذلك جعله يظن أن موته ربما يتأخر أيامًا أخرى.

*****

اليوم الحادي والعشرون

العاشرة صباحًا استيقظت "نور"، كانت مفترشة الأرض جوار جدها، ألقت نظرة عليه وجدته نائمًا، خرجت للصالة رأت غرفة "علي" مغلقة، لم تعرف هل ما زال نائما حقًا أم استيقظ ويتظاهر بالنوم، هي تعرف أنه يحاول تجنبها كما تعرف أنه يحبها كثيرًا، ولكن ليس في استطاعته أن يواجه أمرًا كهذا.

بعدما غسلت وجهها وصففت شعرها، جلست في الصالة لا تعرف ماذا تفعل، كانت جائعة، ولكنها انتظرت "علي" ليتناولا الفطور معا، مرت ساعتان تفقدت هاشم فيهما ثلاث مرات، وما زال "علي" لم يخرج، تيقنت أنه استيقظ ويخشى أن يراها، ساعات قليلة وسوف تأتي أمها، خجلهُ سيجعله لا يأكل في وجودها أبدًا، شعرت بالغيظ الشديد منه، فطرقت الباب، لابد أن تخبره بقدوم أمها وأبيها، حتى لا يتفاجأ، بعد طول صمت قال:

- هل.. جدي.. "هاشم".. يريدني؟

بصوت مرتفع من الخارج قالت "نور":

- لا.. ولكن لا بد أن نتناول الفطور قبل قدوم أمي وأبي.

شعر بالتلبك في معدته فور سماع هذا، ماذا سيفعل؟ هل يذهب الآن؟ لم يعرف هل هما قادمان ليأخذا "نور" أم ليكونا مع "هاشم"، ولكن ما يعرفه أنه لا يجب أن يكون موجودًا في حضورهما، لابد أن يذهب كما حدث يوم قدوم "نور" مع أبيها، فنهض سريعًا واتجه نحو الباب فتحه وقال عندما رآها:

- متى سوف.. يعودان؟

حاولت "نور" أن تكتم ضحكتها وهي تقول:

- ما زالا لم يصلا وتسأل عن عودتهما!

لم يضحك قال بجدية:

- إذن.. متى.. سوف.. يأتيان؟

- لا أعلم هل هما قادمان بالقطار أم بسيارة.

قبل أن تنتهي جملتها دق الجرس.. شعر "علي" أن أحدهم قد صب لوحًا مفتتًا من الثلج فوق رأسه، تجمد ولم يعلم ماذا يفعل، ظل واقفًا في موضعه يراقب "نور" وهي تفتح الباب، دخلت "وردة" و"بكر" زوجها بعدما حيا الاثنان "نور" تحية سريعة بعناق قصير وقُبل لحظية إذ كانت "وردة" متلهفة لرؤية أبيها وكان معهما طبيب من عندهم في القرية يدعى "الدكتور كامل" ولكنه انتقل حديثا للقاهرة فاتفقا معه وتقابلوا أخذاه في طريقهما، منذ أغلقت "وردة" أمس مع "نور" المكالمة وهي ترتب لكل شيء، أبلغت "بكر" أن يأخذ إجازة من عمله وأن يبحث عن سيارة أجرة فلن تنتظر القطار، وهاتفت الدكتور كامل قالت له ما وصلها من "نور" عن أبيها، صار لا يستطيع السير وحده وفقد الكثير من وزنه والطعام لا يصمد في معدته كثيرا ويتقيأه، وقالت له إنها تريد أن يراه، عرضت عليه أن يذهب معها هي و"بكر" وسوف تعطيه المبلغ الذي يريد، وبدوره أنكر عليها هذه الجملة وقال إنه سوف يذهب معهما بدون مال.

جاءت السيارة في الرابعة صباحًا وتابع "بكر" عملية وصولهما بالهاتف مع الدكتور كامل لينتظرهما، رأت "وردة" "علي" مرة أخرى، ما زالت لا تعلم من هذا ولماذا هو هنا الآن، ولكنها تجاهلت

ذلك كله ولوحت لـ"علي" مبتسمة باصطناع وقالت بعدها موجهة حديثها لـ"نور":

- أين جدك؟

- نائم في غرفته، لا توقظيه الآن فآلامه لا تنتهي.

دخلت "وردة" وتفاجأت من رؤية أبيها، كان حطام إنسان، عظامًا بارزة يغطيها الجلد، كانت تظن أن "نور" تبالغ، ولكن اتضح أنها لم تقل نصف الحقيقة حتى، رآه الدكتور "كامل" فقال:

- منذ متى وهو هكذا ومما يشكو؟

قالت "نور": "علي" من كان معه منذ البداية.

نادوا جميعا عليه فجاء بطيئًا يجر قدميه بخجل يكاد يذيبه فأعاد عليه الطبيب السؤال، لا يعلم "علي" هل يقول الحقيقة أم ما يريده "هاشم"، لم يعتد الكذب وكان مرتبكًا ارتباكًا شديدًا، إذ كان محاطًا بأربعة أشخاص، شعر أنه في موضع اتهام فقال بحروف ممطوطة ومرتعشة:

- منذ ٢١ يومًا..

صمت قليلاً وبثقل أكمل:

- دعاني.. لأعيش معه.. قال.. إن الطبيب.. أخبره.. أن.

انتظروه ليكمل بنفاذ صبر، واصل:

- أمامه.. أيام.. قليلة.. ويموت.

أتبع وهو ينظر نحو "وردة":

- كان.. يريدني.. أن.. أخبرك.. عندما.. يحدث.. هذا.

لم تقو "وردة" على النطق كانت ذاهلة، فقال الدكتور "كامل":

- هل هناك فحوصات؟

ذهب "علي" ليجلبها دون أن يتكلم وأعطاها له، أخذها "كامل"، تفحصها كلها وقال باستغراب:

- هل هناك أخرى؟

- تلك.. كل.. الفحوصات.

نظر نحو "وردة" و"بكر" وهو يقول:

- ليس بها شيء خطير.. فقط نسبة الحديد قليلة درجتين عن المعتاد وهناك التهابات في المرارة.

لبس "كامل" السماعات الطبية ووضعها على صدر "هاشم" ليسمع نبضات قلبه وهو نائم ومسك بيديه ليقيس النبض، اندهش، لقد كان ميتًا منذ ساعات، انقبض قلبه وتبدلت ملامحه، نظر نحوهم وجدهم مترقبين حديثه، ازدرد ريقه وقال:

- إنه ميت!

صدم "بكر" وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وانهمرت الدموع كالشلالات من عيني "نور" بلا مقدمات وهي تضع يدها على فمها حتى لا تصرخ، بينما ارتمت "وردة" على صدر "هاشم" صارخة وهي تقول بأعلى صوت لها:

- أبي.

ظلت تهزه وتقول:

- لالا.. لا تمت لا..

وجهت حديثها للدكتور "كامل" بصوت يملؤه الرجاء:

- افحصه جيدًا.. ربما في غيبوبة.. سوف تكون غيبوبة.

عاودت حديثها لأبيها وهي تقول من بين بكائها:

- قم يا أبي.. لقد أخبرتني أمس أنك تريد رؤيتي.. ها أنا أمامك.. ها أنا معك.

ارتمت برأسها على صدره مرة أخرى تعانقه، ولكن السيىء في الموت أن الميت لا يستطيع العناق.. لا يستطيع شيئًا، وكأن الحياة هي خضوع الأعضاء لإرادة الجسد وفقط عندما لا يملك الجسد زمام أعضائه يحدث الموت..

في هذا الوقت كان "علي" واقفًا متحجرًا كصنم، فقط ناظرًا نحو "هاشم" وغير مستوعب لشيء، لم ير أحدًا في الغرفة، ولكن صوت بكاء "نور" و"وردة" كان يخترق أذنيه كأنهما تبكيان في أذنه، فجعل صدره يعلو ويهبط وهو يأخذ شهيقًا وراء شهيق بصوت مرتفع دون أن يزفره من فمه كان يزفره من أنفه، ثم ركض، خرج من باب الشقة وهبط السلالم وظل يركض ويركض دون أن ينظر خلفه حتى وصل عند كلابه.

*****

كان "هاشم" نائمًا كالملاك، يرتدي ملابس جيدة ورائحته طيبة، ورغم أنه في أيامه الأخيرة كانت ملامحه ممتعضة على الدوام إثر الآلام المتواصلة، ولكنه الآن بملامح مرتخية كأنما يشعر بالراحة..

مضى خفيفًا كما أراد، ارتقت روحه وهو نائم بسلام دون أن يُفزع أو يفزع أحدًا، لم يمت وحيدًا ويعرف الناس من رائحة جثته كما كان يتخيل في الماضي، بل كانت تفوح منه رائحة عطره المفضل، ومات

سعيدًا بتواصله مع الله و"علي" و"نور"، وبثهما مشاعره وشاهد فيلمه المفضل، انتقل لحياته الأخرى إلى الأبدية وما بعدها، هناك حيث الخلود والسلام والحب التي عاش يبحث عنها، عاد إلى موطنه الأصلي مع الأرواح الطيبة لا وحدة هناك ولا ألم ولا قلق، وترك ذكرى لا تموت بموته عند "نور" وأمها، وعند "علي" الذي علمه القراءة والكتابة والحياة من جديد وجعله يرى العالم والناس بمنظور آخر، الأيام القليلة التي عاشتها معه "نور" سوف تبقى معها إلى نهاية العمر، ولن تنساه "وردة"، لن تنسى عطفه وحنانه، وربما يحكي عنه "علي" للكلاب والقطط والبشر، لن ينسى من عمله كيف يحيا..

مسكين "هاشم"، لقد قتله الوهم وقضى عليه انعدام الأمل، منذ واحد وعشرين يوما عندما سَمع الطبيب، تجاهل أمر كلمة "انتظري" في أول حديثه للفتاة، إذ لو كان فكر قليلاً لربما كان استنتج أنه يتحدث في الهاتف، ولكن الإنسان عجول.

*****

قبل أن تنتهي إجراءات الدفن بقليل، ركضت نور نحو وكر "علي"، ظلت تركض دون أن تأخذ راحة حتى وصلت، وجدت "علي" بظهره وجواره كلبان، كان ما زال واجمًا وصامتًا تمامًا لا يداعب الكلاب ولا حتى يبكي، فقط ينظر أمامه في شرود، بعدما وقفت "نور" تلتقط أنفاسها بمسافة تبعد عنه خمسة أمتار حمدت الله أنها وجدته.. لم تكن تدري ماذا ستقول، كانت تريد أن تقول له "مات جدي يا علي ولن نراه مرة أخرى" فتقدمت قليلًا، قالت وهي تمسح الدموع من عينيها بأطراف أصابعها:

- ماذا كان اسم سكر؟

خرجت الجملة من فمها دون أن تفكر بها، لم يشعر بها "علي" ولم يسمعها، فاقتربت أكثر ورفعت صوتها وهي تكرر:

- ماذا كان اسم سكر؟

استدار "علي"، كان يظن أنه يتهيأ له ذلك، لم يكن يتصور أنه سوف يراها مرة أخرى، وقف صامتًا فاقتربت منه حتى وقفت جواره وقالت:

- ماذا كان اسمه؟!

- شيتا.

قالها وانفجر باكيًا، كانت "نور" تبكي أيضًا وبشعور لا إرادي أخذت يده بين يديها لتشد من أزره وأزرها..

الآن فقط أصبح لحزنه معنى ولوجعه العميق حائط مبكى.. ظل الاثنان يبكيان معًا والتفت الكلاب حولهما في وئام وهي تنبح كأنها تواسيهما.

*****

رحل هاشم عبد الحي في الخامس والعشرين من يونيو ومأثرته الكبرى أنه لم يؤذ أحدًا متعمدًا، عاش خفيفًا ورحل كذلك بعدما أرهقته الوحدة، لم يشعر أحد بحضوره ولا غيابه، فضلا عن الثلاثة "وردة" و"نور" و"علي" فقد ترك بهم أثرًا لا يزول، وحسب الإنسان من الدنيا ثلاثة أحبوه بصدق يتذكرونه ويدعون له..

شيعه أهل قريته وكان من بينهم "علي" الذي أخذته "وردة" معهم لحضور الجنازة، بعدما علمت توصية أبيها عليه.

تمت بحمد الله

شكر خاص

لأستاذي الكاتب والناقد الأستاذ "عادل عبد الرازق" الذي منحني الثقة منذ أول مرة قرأ لي وما زال.. نصائحك لي في تلك الرواية كانت فارقة بشكل كبير.

وللكاتب الواعد "حمزة باغي" الذي قطع الكثير من وقته الثمين ليعطيني نصائح تفصيلية أفادتني كثيرًا.

وللكاتب المتميز "إيهاب عبد الوهاب العرشي" الذي منحني الثقة وبعض النصائح.

وللكاتبة العزيزة رانيا زيت حار التي أعطتني الكثير والكثير من النصائح لتخرج الرواية بشكل أفضل.

وللكاتبة العزيزة نورهان أبو الفضل التي لا تكف عن دعمي ومدح قلمي.

وللصديقة اللبنانية الجميلة نيڤين ناصر الدين الداعمة لي بقوة، تقولين لي دائمًا "ضلي اكتبي" وها أنا أقول "ضلي بالقرب".

شكرا لكم جميعا من الأعماق

*****